



جوتفريد فيلهلم ليبنتز

# المونادولوجيا

والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي

نقلها إلى العربية  
وقدم لها وعلق عليها  
د. عبد الغفار مكاوي

١٩٧٨



المونادولوجيا

جو تفرید فیلم نام لیسنہ

# المونادولوجی

والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل إلهي

نقلها إلى العربية  
وقدم لها وعلق عليها  
د. عبد الغفار مكاوي

١٩٧٨

دار الثقافة  
للطباعة والنشر  
بالقاهرة

# إهداء

إلى أستاذى الدكتور عثمان أمين .  
الذى علمنى كيف أحب نصوص الفلاسفة  
وأتماط مع أفسكارهم ونبضات قلوبهم ؟

عبد الغفار مكاوى

سلسلة النصوص الفلسفية

تقديم

حين يعن المرء النظر في فترات النهوض الفلسفى على مر العصور ، يجد بينها جميعا سمة مشتركة تبرز أمامه بوضوح كامل ، هى العناية بالنصوص الفلسفية . فالنهضة الفلسفية العربية التى أثرت الحضارة الإنسانية بفكر الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، سبقتها وعاصرتها فترة نشطة من الترجمة ، نقلت إلى اللسان العربى ذخائر الفكر اليونانى ، فحدث ذلك الامتزاج بين طريقتين فى التفكير وأسلوبين فى النظر إلى العالم ، كان أحدهما وثنيا عقليا منطقيا ، وكان الآخر مستقندا إلى إيمان دينى متفتح ، وأثمر تزاوج هاتين الطريقتين فى التفكير فلسفة لها طابعها المميز ، وأسلوبها فى البحث لا يزال ، حتى اليوم ، يحتل مكانة رفيعة فى التراث العالمى .

كذلك كان عهد الحركة الفلسفية الخصبة التى شهدتها أوروبا فى القرن السابع عشر ، والى كان أقطابها همالة للفكر من أمثال بيكن وديكارت واسبينوزا ، مسبقا بمجهود ضخم يهدف إلى نشر النصوص الفلسفية القديمة ، من العصر اليونانى بوجه خاص ، بين أكبر عدد ممكن من المثقفين وبفضل هذا الجهد ، الذى اضطلمت به مجموعة من الباحثين المقارنين فيما يعرف بحركة « النزعة الانسانية » عرفت أوروبا فى مطلع العصر الحديث نماذج حقيقية للفكر القديم ، لم تشوهها تحريفات مفكرى العصور الوسطى وتأولاتهم ، واكتسب العقل الأوروبى فائدة لا تقدر من الاطلاع على نمط فكرى مخالف للنمط اللاهوتى الذى ظل مسيطرأ على الأذهان طوال ما يقرب من ألف وخمسة مائة عام ، فكانت حصيلة ذلك كله تلك الانطلاقة الرائعة التى أثمرت مجموعة مثالية من المذاهب الفلسفية العميقة ، فاقت فى تنوعها وخصبها

ما أنتجته خمسة عشر قرناً سابقة ، وهيأت الأساس العقلي لحضاره تلاثم تطلعات الإنسان الحديث .

هذان إذن مثالان يقطعان بأن إحياء النصوص الفلسفية الأصلية ونشرها على أوسع نطاق هو شرط ضرورى يمهّد لفهمه الفكر الفلسفى . وقد يبدو فى هذا الفرق نوع من المفارقة ، إذ يخيّل إلى المرء للوهلة الأولى أن الرجوع إلى النص الأصلى يتعدى من انطلاقه العمل الخلاق ، إذ يضمه أمام نماذج فكرية رفيعة يشعر المرء إزاءها بالتضاؤل ، وبأنه لا يملك أن يضيف الزيد إلى ما قاله العباقرة من أصحاب هذه النصوص . ولكن حقيقة الأمر أن الصحبة المباشرة للمفسرين الكبار — لا تلك الصحبة التى تمّ بقوسط المفسرين والشرّاح — تعطى العقل الفلسفى دفعة هائلة إلى الأمام ، إذ تطرح أمامه الأسئلة الأصيلة فى الفلسفة ، وتقدم إليه نماذج لإجابات عبقرية عنها ، وتدعوه إلى أن يعيد طرحها من جديد ، وتحفزه إلى أن يبحث بنفسه ولنفسه — كما بحث هؤلاء — عن إجابات تمشى وطبيعة عصره ومجموعه ، وترضى نزوعه الشخصى إلى إضفاء صبغة معقولة على العالم .

إن النص الفلسفى إنما هو دعوة للقارىء إلى التفكير الحر ، سواء فى فهم النص وفى تأويله وفى الكشف عن دلالته ، وهو قبل ذلك كله دعوة له كيما يجد لما يقرأه مكاناً فى عالمه العقلى الخاص ، ويدمجه فى تصوّره العام لحياة الفكر على المصور . ومن هنا كانت القراءة الخلاقة للنص أبعد ما تكون عن حالة التلقى السلبي أو الخضوع الممّثل . والدليل الواضح على ذلك تلك الاختلافات الهائلة بين الشراح — وبين القراء — فى فهم النص الواحد . فمعايشة الفيلسوف من خلال كتاباته تختلف كل الاختلاف عن قراءة بحث يضع فيه العالم خلاصة كشف جديد توصل إليه ، إذ أنك فى

الحالة الأخيرة مدعو إلى أن تقتنع بالنتائج التي يمرضها عليك ، وتقبلها — بعد اقتناعك — قبولاً تاماً . وإنما يجد العقل المفتوح هذه المباشرة أقرب ما تكون إلى تذوق عمل فني كبير ، يقدم إليك من الإبداعات أكثر مما يقدم من المعاني الثابتة ، ويدعوك ( بل يتحدثك ) إلى أن تجرب قدرتك على تفسيره واتخاذ موقف منه ، أكثر مما يدعوك إلى قبوله والتسليم بعظمته في سلبية وخشوع .

ولأنى لأرى إزاما على ، في هذه الكلمة التي أقدم فيها سلسلة من النصوص الفلسفية تتيح للقارئ العربي أن يطلع ، بلغته القومية ، على الفكر الحى لعدد من أقطاب الفلسفة ، أن نشير إلى ما نأمل أن يحققه نشر النصوص الفلسفية من نهضة فلسفية في بلادنا . فطالما سمعنا من يتحدثونا عن انقصار بلادنا إلى التفكير الفلسفى الأصيل ، الذى يجمع بين الشمول والأصالة ، والذى ينهم من تربتنا لى يعلو شاهقا حتى يبلغ سماء الفكر العالمى . وتلك بالفعل حقيقة لا بد من الاعتراف بها ، ومحاولة البحث عن أسبابها . وعلى الرغم من أننى لست الآن في معرض الخوض في هذه المسألة ، فإننى مؤمن بأن من أنجح وسائل علاج هذه الظاهرة ، إتاحة الفرصة أمام جمهور المثقفين لى يمارسوا بأنفسهم ، دون حاجة إلى وسطاء ، تجربة معايشة الفكر الفلسفى في صورته النقية ، ويتابعوا البقاء الشامخ الذى شادته عقول جبابرة ، وهو يعلو أمام أنظارهم طابقا فوق طابق ، فهذه المعايشة بتحقيق حوار حقيقى بين العقول ، تسكسب بفضل القدرة على الجدل الخصب البناء ، وتكشف بنفسها عن زيف المرايا الخادعة التي تقدم إلينا من خلالها بين الحين والحين ، صورة العيارات الفكرية العالمية ، والتي تكاد تكون هى الزاد الفلسفى الأوحى لعدد كبير من المتطلعين إلى الثقافة في بلادنا .

وإني ، إذ أحبي هذه المحاولات الجادة التي يقوم بها مجموعة من خيرة  
شبابنا المشتغلين بالفلسفة من أجل نشر الفكر العالمي على أوسع نطاق بين  
قراء العربية ، وأرى فيها بشيراً بنهضة فلسفية حقيقية في بلادنا ، آمل مخلصاً  
أن يقترب اليوم الذي يزيج فيه مجتمعاتنا من طريقه كافة العقبات التي حالت  
دون تحقيق ذلك الحلم الذي يراود كل محب للثقافة ، وأعني به ظهور فكر  
فلسفي أصيل يعبر عن شخصيتنا القومية أصدق تعبير ؟

فؤاد زكريا

تمت

## اولا - حياة لينينز

يحمل لينينز مكانة مرموقة في كل كتاب عن تاريخ الفلسفة . وليس هناك من يشك في قيمته الفلسفية ، أو يتردد في وضعه بين كبار الفلاسفة . ومع ذلك فلم له لم يكن ليوافق على هذا أو لم يكن ليكتفى به ! فجهوده لم تقتصر على الفلسفة ، بل امتدت إلى ميادين السياسة والتاريخ والقانون واللغة والاجتماع والاقتصاد واللاهوت والعلم الطبيعي والرياضي ، كان سياسياً بالمعنى الشامل لهذه الكلمة ، وشغلته مشروعاته الضخمة في هذا المجال طوال حياته . وشارك في معظم ميادين العلم النظرية والتطبيقية ، كما جعلته كشوفه الرياضية ( وبالأخص اكتشافه لحساب اللامتناهي في الصغر أو التفاضل والتكامل ) من أعظم العلماء الرياضيين في كل العصور . أضف إلى هذا أنه طور الآلة الحاسبة التي طوعها « باسكال » للجمع والطرح فأصبحت قادرة على الضرب والقسمة وإستخلاص الجذور مما أتاح له شرف الانضمام إلى عضوية الجمعية الملكية الانجليزية . ولم يقف نشاط لينينز في مجال العلوم عند هذا الحد ، فقد شغل بمسائل التعداد والمناجم ومشكلاتها الفنية ، مما أدى إلى اكتشافات هامة في الجيولوجيا وإستغلال الطاقة .. أما أعماله التاريخية فكان من أهمها الجزء الأول من تاريخ أسرة جويلف<sup>(1)</sup> ، الذي لم يتمكن من إتمامه .

وإذا كان قد شاع بين الناس أن التأمل الفلسفي يجني بالضرورة على حظ الإنسان من النجاح في الحياة العملية ، فإن لينينز يمد دليلاً حياً على

---

(1) Gnelf

خطأ هذا الظن . وليس معنى هذا أن حياته خلت من المموم والآلام ، أو نجت من الوقعية والدس . فقد لقي في أواخر حياته مالم يلقى من الجحود والنكران ، ومات وحيداً كالمناداة الوحيدة ، ولكنه نال على كل حال ما لم ينله غيره من المكانة والحظوة في أوساط العلم والسياسة والبالاط . ثم ظل بعد موته منسياً أو شبه منسى حتى قدراً لأغلب إنقاچه أن ينشر ، وسطح مجده منذ أوائل هذا القرن ، وعكف الباحثون على درسه وإلقاء الأضواء على شخصيته الموسوعية الرائدة .

ولد ليبنتز في مدينة ليبزج في الواحد والعشرين من شهر يونية سنة ١٦٤٦ ، قبل نهاية حرب الثلاثين التي أنهكت أوروبا ودمرت ألمانيا بسنتين . وكان أبوه محامياً وموثقاً وأستاذاً جامعياً . وظهر نبوغه المبكر في طفولته وسنواته الأولى في المدرسة ، فلم يكدهم يقوم الثامنة من عمره حتى علم نفسه اللغة اللاتينية بدون معلم ولا كتاب ! وأتاحت له مكتبة أبيه الضخمة أن يقوم بسياحات واسعة في أرض المعرفة ، فتمكن من الأمام باللغات القديمة إلى ما طميا ، واتجه إلى قراءة مؤلفات الشعراء والمؤرخين والكتابات القديمة وآباء الكنيسة والفلاسفة المدرسين ، وعرف أسماء وأعمال ششرون وسينيكا وكوينتيليان ، وهيرودوت واكرينوفون وبلينيوس وأفلاطون . يقول عن هذه الفترة من حياته إنه لم يفهم منهم في البداية شيئاً ، ولكنه استقطاع بالتدريج أن يعرف بعض الشيء ، ثم انتهى إلى معرفة ما يكفي . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره التحق بالجامعة العريقة في موطن رأسه ، وتركها بعد ذلك بفترة قصيرة للدراسة في جامعتي « يينا » و « ألتدورف » في ( بافاريا ) . وقد عكف في البداية على التفقه في القانون ، ولكنه شغفه بالمعرفة الشاملة لم يلبث أن غلب عليه فاتجه إلى الفلسفة والرياضة والفزياء واطلع على أعمال بيكون

وديكارت وجاسندي وجاليليو . ويبدو أنه جرب الكتابة في هذه السن المبكرة ، إذ لم يكديتم السادسة عشرة من عمره حتى كان قد نشر أول بحوثه الفلسفية باللاتينية وهو « شرح ميتافيزيقى لمبدأ الفرد »<sup>(١)</sup> ، مما يدل على إهتمامه بهذا المبدأ الذى سيطبع كل تفكيره وفلسفته .

تلقى ليبنتز الفلسفة في جامعة لايپزج على ياكوب تومازيوس<sup>(٢)</sup> ( ١٦٣٢ — ١٦٨٥ ) وكان من أكبر المعارفين بالفلسفة اليونانية والمدرسية ، والناقدين لها والمعتنئين بنهايتها على السواء . .

أما في « بينا » فقد تعلم على العالم الرياضى ارهارد فايجل<sup>(٣)</sup> ( ١٦٢٥ — ١٦٩٩ ) الذى لقنه أسس الرياضة وعرفه بالفلسفة الفيثاغورية والعلم الطبيعى والتفسير الميكانيكى السائد فى عصره . ويبدو أن المحاولات التى كان يبذلها « فايجل » للتوفيق بين فلسفة أرسطو والفلسفة الميكانيكية وتطبيق المنهج الرياضى على الأخلاق والميتافيزيقيا قد تركت أثراً لا يمحو من نفس ليبنتز . وانشغل بالرياضة والميكانيكا ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص تماماً من الفلسفة المدرسية ، إذ ظل يفكر فى نزاهاته الوحيدة فى الغابة القريبة من لايپزج فى « الصور الجوهرية » التى قال بها المدرسيون ، وهل ينبغى عليه أن يتخلى عنها أو يبقى عليها فى مذهبه المقبل ، وقد ظهرت آثارها فى أول بحث دراسى وضعه فى حياته عن مبدأ الفرد الذى أشرت إليه ولكنه استطاع على كل حال أن ينتزع نفسه منها ليرجع إلى دراسة القانون التى أتمها فى جامعة ألتدورف فى سنة ١٦٦٧ ( إذ أبت عليه جامعة لايپزج أن يحصل على الدكتوراه لعصر سنه ) .

(1) Disputatio Metaphysica de Principio individui

(2) Jacob Thomasius

(3) Erhard Weigel

(م ٢ — المونادولوجيا)

وجذبه طبيعته المظلمة لـكل جديد وغرب إلى مدينة نورمبرج ،  
فقضى فيها فترة قصيرة أشبع فيها شوقه إلى معرفة أسرار إحدى الجمعيات  
الروحية التي كانت تسمى نفسها جمعية « أصحاب الصليب الوردى » ،  
وتمارس طقوسا خفية لاستجلاء أسرار الدين والطبيعة والمعادن والعثور  
على حجر الفلاسفة ! .

وتعرف لينتقز بعد ذلك بقليل — أو ربما أثناء إقامته القصيرة في  
نورمبرج — على البارون يوهان كرسيتيان بوينبرج المستشار السابق لأمير  
« ماينس » وأسقفها يوهان فيليب فون شونبرج . وفطن المستشار إلى  
مواهب المحامي الشاب وسعى له في العمل لدى الأمير ، كما ساعده على  
الإلمام بمشكلات السياسة الأدورية . وقد كانت المشكلة الكبرى التي  
تشغل عقول السياسيين وترجع قلوبهم في ذلك الحين هي حماية الإمبراطورية  
الجرمانية الممزقة من مطامع فرنسا وقوتها المتزايدة . وسافر لينتقز في شهر  
مارس سنة ١٦٧٢ في مهمة دبلوماسية إلى باريس ، وفي جمعته مشروع  
مفصل لغزو مصر ، يكشف عن علم غزير بأحوال مصر وثرواتها في ذلك  
الحين . وحاول أن يفرى « الملك الشمس » ( لويس الرابع عشر ) على محاربة  
الإمبراطورية العثمانية لتحويل نظره عن أطماعه في الحدود الغربية المشتركة  
بين البلدين . غير أن الملك الشمس لم يأبه بهذا المشروع ،  
ولعله لم يسمع به على الإطلاق . وأفهم وزراءه المبعوث أن زمن الحروب  
المقدسة قد فات ، فأخفقت المهمة الدبلوماسية إخفاقا ذريعا . ( وبشاء القدر  
أن يكشف نابليون هذا المشروع العجيب أثناء احتلاله لمدينة هانوفر بعد  
ذلك بأكثر من قرن كامل ! ) غير أن إقامته في باريس عوضته عن هذا  
الفشل السياسي ، إذ أتاحت له فرصة الالتقاء بعدد كبير من رجال الدين

والفلسفة والعلم الرياضى والطبيعى نذكر منهم على الترتيب : أنطوان آرنو ، وماهرانش ، وكرسعيان هييجنز ، وآدم ماريوت . بل لقد أسعده الحظ بشاهدة مولير فى إحدى مسرحياته .. ولابد أنه شعر أثناء وجوده فى باريس كأنه يعيش فى بيته وبين أهله ، فانطلق لسانه باللغة الفرنسية التى لم يلبث أن أتقنها ، وساعده هذا على كتابة أهم أعماله بهذه اللغة التى كانت ، إلى جانب اللاتينية ، لغة العلم والعلماء .

وسافر ليمينتز فى شهر يناير سنة ١٦٧٣ فى بعثة أرسلها أمير ماينس إلى لندن ، وكانت إذ ذاك مركزاً هاماً للبحوث الرياضية والعلمية . وقد اغتنم فرصة إقامته فى العاصمة الإنجليزية فكتب رسالة إلى هوبز الذى كان معجباً بفلسفته الطبيعية . ولكنه لم يلق رداً عليها ، فاتصل بأعضاء الجمعية الملكية ، وتوثقت أواصر المودة الروحية والعلمية بينه وبين العالم السكياوى الشهير روبرت بويل : غير أن إقامته فى لندن لم تدم طويلاً ، فلم يلبث أن غادرها فى شهر مارس من نفس السنة عائداً إلى باريس على أثر الأبناء التى بلغته عن وفاة أمير ماينس . وأذن له الأمير الجديدة فى الاحتفاظ بقلب مستشاره القانونى ، ولكنه حرره راتبه وجرده من بعثته الدبلوماسية ! ومع ذلك فقد تمكن من مد فترة إقامته فى باريس ثلاث سنوات أخرى ، قضاها متفرغاً للدراسات العلمية ، عاكفاً على البحث والإطلاع وتبادل الأفكار مع العلماء فى عاصمة النور ، وكسب عيشه من الاستشارات القانونية ( إذ كان خبيراً فى شئون الطلاق ! ) والإشراف على تربية ابن بونبرج المستشار السابق المذكور .

كانت أهم كتاباته وبحوثه فى تلك الفترة فى الرياضة ه فتعرف إلى

أعمال باسكال وطور الآلة الحاسبة، وفتح له هييجنز باب الدراسات الرياضية العالية التي سرعان ما تفوق فيها على أستاذه ! وكان أعظم ما أدت إليه هو اكتشافه الحساب اللامتناهي في الصفر ( التفاضل ) الذي أتمه سنة ١٦٧٦ ، وكان نيوتن قد سبقه إليه سنة ( ١٦٦٥ ) دون أن يعلم . وقد بين البحث بعد ذلك أنهما توصلا إليه بطرق مختلفة ، وفي استقلال تام عن بعضهما البعض ، وإن كان هذا لم يمنع من نشوب خلافات مؤسفة حول أسبوعية أحدهما الآخر .

وغادر باريس في سنة ١٦٧٦ عائداً إلى بلاده ، بعد زيارة قصيرة للندن ولاهاي ، حيث لقي اسبينوزا واستمرت المناقشات الفلسفية بينهما عدة أيام . وقد ظلت هذه الزيارة مثاراً للجدل . كما أحاط الغموض بعلاقة الفيلسوفين . ولكن يبدو أن لينتز لم يقتنع بآراء اسبينوزا ، وعارض نظريته عن الله ونفده الأديان ، وأن لم يكن هناك شك في أنه سعى للاطلاع على مخطوطاته التي جاهد الفيلسوف الهولندي المنطوي على نفسه لحجبها عنه ! ويظهر أن لينتز قد لفت انتباهه إلى اسبينوزا والأمل يداعبه في أن يجد لديه الحل الذي ينفذه من أخطاء ديكارت ! فلما لم يجد هذا الحل يئس منه وسخط عليه ! ولكنه لم يخل مع ذلك من التأثير به إذ أقنعه النتائج التي توصل إليها سبينوزا بأن التفسير الميكانيكي للعالم تفسير غير كاف ، كما تأثر بغير شك بفكرته عن النزوع Conatus التي أخذت شكلاً آخر لديه ، ولعله أن يكون كذلك قد تأثر قليلاً أو كثيراً بفكرته عن الجوهر السكلي الذي أصبح لديه قوة ديناميكية فردية متميزة بعد أن أدار وجهه ناحية أفلاطون وأرسطو والمشائين ! .

مهما يكن من شيء فقد مات اسبينوزا بعد ذلك بشهور قليلة . وكتب  
لبينتز رسالة إلى القس جالوا يقول فيها هذه العبارة المعجبية « مات اسبينوزا  
في هذا الشتاء ، إن له مئة ألفين بقا غريبة ، مليئة بالمناقضات .. » .

وصل لبينتز إلى هانوفر في شهر ديسمبر سنة ١٦٧٦ . وقبل وظيفة  
مستشار في بلاط الدوق يوهان فريدريش وأمين مكتبته . وأظهر الدوق  
عطفه الشديد على لبينتز وتفهمه لمشروعاته السياسية والدينية ومنجزاته  
العلمية . وبقيت العلاقة بينهما أقرب ما تكون إلى العلاقة بين الأصدقاء حتى  
مات الدوق في سنة ١٦٧٩ فأحس لبينتز بخسارته الفادحة ، التي زاد من  
وقعها على نفسه أن خلفاءه لم يفهموه أو يقدروه . فقد خلف الدوق شقيقه  
أرنست أوجست ، ثم جاء بعده ابنه جورج لودفيج ، ولم يكن لهما نصيب  
من ذكاء العقل أو رقة القلب ، ومع ذلك فقد شاءت العناية الإلهية أن  
تعزى الفيلسوف الوحيد عن خسارته بالقرب من سيده مثقفة نبيلة لم تبخل  
عليه هي ولا ابتغها مودتها ورعايتها .

وكانت هذه السيدة هي الدوقة صوفي ، زوجة الدوق أرنست أوجست ،  
وأما ابنتها صوفي شارلوت التي صارت بعد ذلك ملكة بروسيا ، واتصلت  
الصداقة العقلية الخالصة بينهما . فأهمته الكثير من أفكاره الأصيلة ، ومدت  
إلى قلبه الوحيد أشعة دافئة أوجت إليه ببعض مؤلفاته الفلسفية .

قضى لبينتز في بلاط هانوفر أربعين سنة حافلة بالنشاط السياسي  
والدبلوماسي الذي أتاح له فرصة السفر في رحلات طويلة . وقد ساقته هذه  
الرحلات بين سنتي ١٦٨٧ — ١٦٩٠ إلى نابولي عن طريق فيينا وروما ،  
والتقى في فيينا بالإمبراطور ليوبولد الأول ، وتناقش في روما مع رجال

العلم والكنيسة ، كما تحاور مع بعض اللاهوتيين الجزويت عن بمقتهم إلى الصين وعن مظلة الحضارة الصينية . وعرضت عليه وظيفة أمين مكتبة الفاتيكان . وكان من الممكن أن يساعده هذا العرض المفرى على الوصول لمنصب الكاردينال ، لولا أنه رفض أن يتحول إلى المذهب الكاثوليكي .

هكذا تشقت حياة ليبنتز بين واجباته ومهام منصبه العديدة التي وزعت جهوده بين المكتبة وكتابة التاريخ والتوفيق بين الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية وتأسيس الأكاديميات وإصدار الفتاوى القانونية ! ومع ذلك فقد وجد شيئاً من الفراغ الذي مكّنه من العكوف على بناء مذهبه الفلسفي . فكتب في سنة ١٦٨٦ « المقال في الميتافيزيقا »<sup>(١)</sup> وهو أول تلخيص يحمل فيه أهم أفكاره الفلسفية والدينية كفكرته عن الجوهر البسيط والاتساق المقدر ، وقدمه للعالم اللاهوتي أرنو الذي ظل يرأسه أربع سنوات . أما أول عرض منهجي لمذهبه فقد نشره بعد ذلك بتسع سنوات (١٦٩٥) في مالايزيد عن ثلاث عشرة صفحة في مجلة العلماء<sup>(٢)</sup> التي كانت تصدر في باريس تحت عنوان « المذهب الجديد عن الطبيعة والاتصال بين الجواهر »<sup>(٣)</sup> .

ونمكن ليبنتز في سنة ١٧٠٤ من إكمال « المقالات الجديدة عن العقل البشري »<sup>(٤)</sup> التي ناقش فيها آراء جون لوك عن نظرية المعرفة في

---

(1) Discours de Métaphysique .

(2) Journal de Scavans .

(3) Système nouveau de la nature et de la Communication des Substances .

(4) Nouvesux essais sur l'entendement humain .

كتابه « مقال عن العقل الإنسانى ( ١٦٩٠ ) » مناقشة واسعة . ثم شاء الموت أن يعاجل لوك قبل الانتهاء من هذه المقالات بقليل ، فأحجم ليبنتز عن نشرها ولم تظهر إلا بعد وفاته بخمسين سنة ( سنة ١٧٦٥ ) .

ويبدو أنه تردد فى نشر رسالة الشهيرة عن العدل الإلهى أو التهوديسم ، حتى ألحت عليه صوفى شارلوت فى نشرها ( وكانت قد تزوجت من فردريك الأول وأصبحت ملائكة على بروسيا ) وظهر الكتاب سنة ١٧١٠ ، وسرعان ما ذاع وانتشر ذكره وأثره بين الناس . وكان عنوانه القرعى وحده كافيا للدلالة على موضوعه : طيبة الله ( أو خيريته ) ، وحرية الإنسان ، وأصل الشر<sup>(١)</sup> كما كان اردوده على الانتقادات التى وجهها إليه الفلاسوف الفرنسى بيير بايل فى قاموسه التاريخى والفقدى دور فى هذا الأثر الكبير .

واستطاع ليبنتز قبل موته بسنتين أن يضم رسالتين صغيرتين ، تلخص فيهما فلسفته وصاغها فى عبارات دقيقة محكمة . كانت أولاهما هى المبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى<sup>(٢)</sup> ، أما الثانية فقد تركها بغير عنوان ، ثم عرفت بعد ذلك باسم المونادولوجيا<sup>(٣)</sup> . وأصبحت أشهر أعماله وأكثرها دلالة على مذهبه . وقد أراد لها أن تكون مدخلا مبسطا لفلسفته ، وأهداها ( هى أو المبادئ فى رأى بعض الشراح ) للأمر يوجين الذى تعرف به فى فيينا وكعب مودته .

كان ليبنتز من هواة كتابة الرسائل . وتضم قائمة مراسلاته أكثر

---

(1) Essais de Théodicée sur la Bonté de Dieu, la liberté de L'homme et l'origine du Mal (1710).

(2) Principes de la nature et de la Grace fondé en raison.

(3) Monadologie.

من ستمائة اسم ! وقد ضمنها عدداً كبيراً من آرائه في السياسة والدين والفلسفة ، وبث فيها كثيراً من هموم العالم الوحيد الذي يستضيء الناس بنور عقله ، ويضنون عليه بشمع يدفء قلبه . ولعلها كانت أنسب وسيلة للتعبير عن أفكاره العميقة وخواطره ولحائنه الأصيلة التي حرره القشت والترحال فرصة تقييد طيورها الشاردة في قفص السكتب المنهجية المنسقة ! ولم يتسن بعد للباحثين أن ينشروا كل هذه الرسائل المبعثرة المكتوبة بخط رديء تصعب قراءته ، ولا شك أنها جزء لا يتجزء من حياته وشخصيته ونشاطه العقلي المقدفق .

مات ليبنتز في هانوفر في الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٧١٦ بعد أن بلغ السبعين . مرض قبل موته بالنفوس ، وامتلاّت نفسه مرارة من جحود الأصدقاء والمعارف والزملاء ، وبقيت معظم أعماله الفلسفية والعلمية شذرات ناقصة ، واخفقت أغلب مشروعاته السياسية والدينية . وكان أمير هانوفر — اعتلى عرش إنجلترا قبل وفاة ليبنتز بسنتين وسمى نفسه جورج الأول — قد تخلى قبل ذلك عنه . وكانت صديقاته وراعيةاته النبيلاتان — الأميرة صوفي أم هذا الملك وشقيقة الملكة صوفي شارلوتة — قد اختفيا من مسرح حياته التي لم تعد تحتمل بعدهما . وفكر في أيامه الأخيرة أن يغادر هانوفر ، ولكن صحته كانت قد تحطمت . وعندما مات لم تمش في جنازته أحد من رجال الدين الذين اتهموه قبل ذلك بمقاطعة الكنيسة واقتبوه « المؤمنين بلا شيء » ، ولامن رجال البلاط الذي وهبه أربعين سنة من عمره . وتجاهلت الجمعية الملكية البريطانية نبأ وفاته ، وأهملته أكاديمية برلين التي أسسها وكان أول رئيس لها . لم يشيعة إلى قبره سوى تابعه وسكرتيره الأمين الكهارت . وسار نعشه ، كما قال أحد شهود العيان — كأنه

نمش لص أو قاطع طريق ، وكأنه لم يكن زينة بلده . ولولا الخطبة البليغة  
التي نعاها بها فونتينييل -- ابن أخ الشاعر المسرحي كورنى - بعد موته  
بسنة كاملة أمام أكاديمية العلوم فى باريس لأصابنا اليأس المطبق من  
قسوة الإنسان .

ولسكن أعماله بقيت على الرغم من سوء الحظ الذى صادف فى أواخر  
حياته . وستضمن له المجد والخلود ، إن كان فى هذا العالم الشقى المظلم الذى  
أسرف فى حسن الظن به شىء اسمه الخلود ! .

## ثانيا - فلسفة ليننتز

### العالم كل متجانس :

ترجع فكرة « الجوهر » إلى أرسطو الذى ندين له بعدد ضخم من أفكارنا ومصطلحاتنا الفلسفية . والجوهر عنده هو الماهية التى يقوم عليها وجود كائن فردى معين . هذه الماهية تظل ثابتة وإن تغيرت كل الخصائص الخارجية التى تميز هذا الكائن من حجم وكميات وعلاقات . . . الخ — وقد دارت مناقشات عديدة حول فكرة الجوهر الأرسطية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ووقف منها الفلاسفة بين مؤيد ومعارض . أصر التحريبيون على رفضها وحاولوا أن يلغوها من الفلسفة إلقاء ( فهم يوم مثلا يقول إنها وهم ، وأن الجوهر ليس إلا (مجموع صفاته) . ودافع عنها المدرسيون لأنها كانت تمثل نقطة أساسية فى مذهبهم الفلسفى . وعارضها العقليون مثل ديكارت واسبينوزا . ولكنهم تمثلوها فى صورة أخرى معدلة ( فبينما يقول ديكارت بجوهرين مخلوقين هما الفكر والامتداد ، إلى جانب الجوهر المطلق أو الله ، يقول اسبينوزا بجوهر واحد لا متناه يمكن أن نسميه الله أو الطبيعة ) .

وقد احتفظ ليننتز بفكرة الجوهر ، بل جعل منها محور فلسفته ، وجمع فيها بين عناصر قديمة من التراث الفلسفى إلى جانب أفكاره الخاصة ، بحيث انتهى بها إلى تصور أصيل وجديد ، واختار لها كذلك اصطلاحا جديداً هو « المونادة » لم يستخدمه إلا منذ سنة ١٦٩٧ .

ويبدأ ليننتز بالأجسام الطبيعية . فهذه الأجسام تقبل النسمة ، وهى

لهذا مركبة ، أو هي على حد تعبيره الذي لم يوفق فيه « جواهر مركبة » .  
ولما كانت هناك جواهر مركبة فلا بد في رأيه أن تكون هناك جواهر  
بسيطة . هذه الجواهر البسيطة هي التي يسميها المونادات ، وهي « الذرات  
الحقيقية التي تتكون منها الطبيعة » .

ولكن وصف المونادات بأنها ذرات لا يخلو من إساءة الفهم ، لأنها  
شيء مختلف عما نعرفه اليوم عن الذرات ، ذلك أن ليمنتز لا يقصد منها أن  
تكون هي العناصر الطبيعية النهائية التي تتحلل اليها المادة ، ومن ثم فليست  
هي الذرات ولا الجسيمات أو الجزيئات الأولية التي تتكون منها الذرة .  
بل لأنه ان يتردد في وصف الذرات والجزيئات التي تتكلم عنها الفزياء  
الحديثة بأنها « جواهر مركبة » ، لأن كل الأجسام في نظره تقبل القسمة  
مهما كانت صغيرة ، وعملية القسمة هذه يمكن أن تمتد إلى ما لا نهاية .  
ولن تؤدي مناهج الفزياء الحديثة إلى اكتشاف المونادة التي يتصورها ،  
لأن المونادة لا يمكن تصورها إلا عن طريق الفكر . ولهذا فهي كما يدل  
اسمها بسيطة ، ومعنى هذا في رأيه أنها لا تقبل القسمة ، وليست مادية  
ولا شكل لها ، وهي كذلك لا تتكون ولا تنفد . ومثل هذا الجوهر  
لا يمكن أن يكون موضوعا من موضوعات العلم الطبيعي الحديث .

وإذا كانت مناهج العلم عاجزة عن الوصول إلى فكرة المونادة ،  
فهل يمكن أن تطبق عليها مناهج الرياضة ؟ يحتمل أن تكون بحوث ليمنتز  
عن الكميات المتناهية في الصغر داخل حساب اللامتناهي الذي اكتشفه قد  
أثرت على آرائه الميتافيزيقية . ولكن لا ينبغي أن نبالي في تقدير هذا الأثر  
فالحقيقة أن المونادات ليست كميات متناهية في الصغر ، بل ليست كميات  
على الإطلاق . وفكرة المونادة ليست فكرة رياضية ، لأن ليمنتز يعترض

صراحة على وصف المونادات بأنها نقط رياضية . لقد درس الفلاسفة الفيثاغورية بغير شك ، ولكنه لم يذهب إلى ما ذهب إليه فيثاغورس وأتباعه من تفسير ماهية الواقع تفسيراً رياضياً . فالحقائق الرياضية في رأيه تنفقر إلى كل الخصائص الدينامية . إنها أفكار وليست قوى أو طاقات . والمونادات في حقيقةها مراكز حية للقوة أو الطاقة . وقد عبر عن هذه الفكرة الأساسية في تعريفه المشهور للجوهر ، وهو الذى نطالعه في أول عبارة استعمل بها كتابه مبادئ الطبيعة والفضل الالهى : « إن الجوهر كائن قادر على الفعل » .

المونادات إذاً مبادئ دينامية تدخل في الأجسام الواقعية (أو التجريبية) كما تنتج عنها هذه الأجسام . ويعتقد ليبنتز أن فكرة المونادة تقدم لنا المفتاح الذى نفسر به وضع النباتات والحيوانات والسكانشات البشرية ومكانها من العالم الجسمى فى مجموعه . فى كل كائن حتى فرد توجد مونادة رئيسية تتحكم فى سائر المونادات التى يقاوم منها . ويطلق ليبنتز على هذه المونادة الرئيسية اسماً استعاره من المصطلح الأرسطى وهو « الأنتيليخيا » . فالمونادات « انتيليخيات » . ولكل نبات « انتيليخيا » . والانتيليخيا الموجودة فى الحيوان تسمى « النفس » ، والى توجد فى الإنسان تدعى « العقل » .

وواضح أن فلسفة ليبنتز عن المونادات تحتفظ بالفكرة القديمة عن تسلسل الكون أو تدرجه إلى طبقات يرتفع بعضها فوق بعض . فمونادات الأجسام تحتل أدنى طبقة ، تملوها المونادات التى تتحكم فى النباتات ، ثم تأتى مونادات الحيوانات التى ترتفع فوقها ، إلى أن نبلغ المونادات التى تتحكم فى السكانشات البشرية وتتجاوز سائر الطبقات . ثم نجد أرواحاً أسمى من

الأرواح البشرية تقوسط بين الانسان والله ، وأخيراً نجد المونادة المركزية « المطلقة » السكاملة التى تعلو فوق سلسلة المونادات الفانية ، ألا وهى الله . ولكن هذه المستويات المتعددة ليست مناطق مختلفة معزولة لأن العالم لا يتكون من أجزاء منفصلة ، وإنما يتصل فيه كل شيء بكل شيء ، وهذا الاتصال يقوم على أن كل ما هو موجود إنما هو مونادة أو كائن فرد مستقل . والواقع كله له طابع الانتميلخيما أو صفة الروح . وفكرة الاتصال والتربط بين كل الموجودات تهدم كل محاولة براد بها تفقيت الواقع إلى عناصر متنافرة . وتاريخ الفكر البشرى ملئ بمثل هذه المحاولات . ولا شك أن الهوة السحيقة التى حفرها ديكارت بين « الجوهر المفكر » و « الجوهر الممتد » كانت بمثابة انذار خطير لم يسقط لمينتز أن يقبجاهله ولكن لا شك أيضا أن لمينتز عندما أكد الترابط بين جميع الموجودات قد عرض نفسه ومذهبه لخطر آخر ، ألا وهو اغفال الحدود الفاصلة بين مناطق الوجود المتميزة أو طمسها . وهذه نتيجة تنقضى إليها كل الفلسفات الواحدية التى تعجز عن تفسير الواقع المتنوع نظراً لأنها تقع فريسة لإغراء الوحدة التى تنطوى عليها .

وتعبر فلسفة لمينتز عن فكرة الاتصال المستمر بين جميع الموجودات عن طريق تطبيق فكرة المونادة اللامادية على كل شيء . ولكن الانصاف يقضينا القول بأنه يطبق هذه الفكرة بصورة لا تخلو من العمق والاصالة . فهو يقول فى الفقرة ٥٦ من المونادولوجيا : « هذا الترابط أو هذا القلاؤم بين جميع المخلوقات وبين كل منها على حدة ، ثم بين كل واحد منها والجميع يترتب عليه أن يحتمل كل جوهر بسيط على علاقات تعبر عن مجموع الجواهر الأخرى ، وأن يكون تبعا لذلك مرآة حية دائمة للعالم »

( المونادولوجيا ٥٦ ) ولكن بينما تمكس المرأة جزءاً معيناً من الواقع فحسب، فإن كل مونادة فردية، تمكس الواقع في مجموعه .

فكرة ساحره بغير شك ، ولكنها تحير القارىء وتدفعه إلى السؤال عن طبيعة ذلك الانعكاس ولا بد أن نتذكر ما قلناه من أن المونادات غير مادية ، أى انها شئ عقى أو فكرى خالص . وهذا يفسر لنا أن ما هو فى الخارج ، يمكن أن يتمثل داخل المونادة . وهذا هو الذى جعل ليبنتز يصف هذه القممثلات بأنها « إدراكات » . وليس من الضرورى أن تشعر المونادة الفردية بهذه الإدراكات . فالمونادات العليا - كنفوس الحيوانات والعقل الإنسانى بوجه خاص — هى التى تشعر بها شعوراً واعياً . بل ان هذه المونادات العليا لا تشعر إلا بجزء من هذه الادراكات .

وهكذا يوفق ليبنتز بين المبدأ الأساسى الذى يقول ان كل مونادة مرآة تمكس الكون بأكمله وبين التجربة المباشرة التى تقول بأن عقلنا لا يعى سوى جزء بسيط من العالم . وتصورات المونادات أو إدراكاتها ليست صوراً دائمة باقية ، وإنما هى جزء من عملية دينامية يتم فيها الانتقال بصفة مستمرة من ادراك إلى ادراك آخر . والفعل الذى يسبب هذا الانتقال المستمر هو « النزوع » . وبهذا يكون الإدراك والنزوع مظهرين للحياة التى تتميز بها المونادة .

\* \* \*

وتفكير ليبنتز يعل إلى الغاليف والتركيب والتوفيق بين الآراء والمذاهب والأفكار المتعارضة . ولكن يبدو انه لا ينجح دائماً فى ذلك ، فهو إذا كان يقول بقرابط جميع المونادات واتصالها ببعضها البعض ، فهو يقول من ناحية أخرى ان كل مونادة على حدة ذات كيان فردى مستقل

بنفسه تمام الاستقلال . وقد قيل بحق إن ليمنتز هو أعظم من قال بفكرة التفرد . صحيح انه لم يكن أول الفائلين بها ، إذ أن المشكلة موجودة في الفكر الغربي منذ عهد أفلاطون . ولكن الحق أنه حاول أن يوجب عليها إجابة جديدة وأصيلة . فهو يرى أن مبدأ التفرد موجود في مبدأ الترابط بين جميع المونادات أو بالأحرى في نفس الحقيقة التي يقوم عليها هذا المبدأ الأخير ، أى في انمكاس الكون كله عن طريق الإدراك . فكل مونادة تتميز عن الأخرى حسب درجة إدراكها ومدى هذا الإدراك من الوضوح والتمييز ، أو الغموض والاختلاط . وثمة تدرج مستمر يبدأ من الادراكات المظلمة الغامضة التي لا يصاحبها الشعور ، إلى الادراكات الواضحة المتميزة التي يمثليها العقل الإنسانى . ولا تتفاوت الإدراكات من حيث الدرجة فحسب ، بل إن لكل مونادة منظورا خاصا تمكس العالم كله من خلاله . « وكما أن مدينة واحدة بعينها ، إذا تأملها المرء من جوانب مختلفة ، تبدو في كل مرة على صورة مختلفة تمام الاختلاف ، وكأن لها منظورات متعددة ، كذلك توجد أيضا — بسبب الكثرة اللانهائية للجواهر البسيطة — عوالم عديدة مختلفة ليست في الواقع إلا منظورات لعالم واحد وفقا لوجهات النظر المختلفة لكل مونادة على حدة » — ( المونادولوجيا ٥٧ ) وهذه في الحقيقة فكرة بالغة الخصوبة . إنها توفق كما قلت بين المبدأين ، وتنسق بين تفرد كل وجهة نظر للعالم وبين وحدة العالم المنظور إليه . هذه بالإضافة إلى أن تفرد كل مونادة على حدة يتسق مع الترابط المتصل بين المونادات . أى أن تفرد الفرد متصل بترابط الكل .

ويؤكد ليمنتز فكرة التفرد بفكرة أخرى . فهو يرى أن المونادة ليست فريدة وحسب ، وإنما هي كذلك منعزلة تماما عن سائر المونادات ،

ومحكوم عليها بالعزلة بحكم ماهيتها . وهو يذهب إلى استحالة التفاعل المباشر بين المونادات الفردية — فليست هناك مونادة تؤثر على الأخرى ، والمونادة عندما تحصل على ادراكاتها أو تنتقل من ادراك إلى آخر ، إنما تفعل هذا من داخلها فحسب . وقد وضع هذه الفكرة بقوله المشهور : « ليس للمونادات نوافذ يمكن من خلالها أن ينفذ إليها شيء أو يخرج منها » ( المونادولوجيا ٧ ) .

وإذا فكل مونادة تعتمد على نفسها في تكوين الصورة التي لديها عن العالم . ولكن كيف نعرف أن هذه الصورة تتفق مع واقع العالم ؟ وإذا تغير العالم فكيف نعرف أن صورته قد تغيرت كذلك بما يتفق معه ؟ وكيف نبين أن كل مونادة في العالم متعلقة بكل المونادات ، وأن كل تغير يلحق بإحدى المونادات ينعكس في كل مونادة أخرى على نحو واضح أو غامض ؟

يلجأ ليبنتز إلى فكرة الله اللاجابة على هذه الأسئلة العسيرة . لقد خلق الله جميع المونادات المتناهية أو الفانية ، وقد خلقها بحيث لو تمت ادراكاتها وفقا للقوانين الداخلية السكائمة فيها ، انعكست هذه الادراكات ادراكات المونادات الأخرى ومن ثم العالم كله . وهذا هو ما عبر عنه بمبدأ المشهور عن « التناسق المقدر » أو « التجانس المدبر » . فقد حرص الله عند خلق المونادات على تحقيق التجانس بينها جميعا .

وقد استعار ليبنتز تشبيهها طريقا سبقه إليه غيره عندما صور الله في صورة صانع الساعات الذي أنشأ عدة ساعات تدور في وقت واحد بغير أن تؤثر إحداها على الأخرى ..

كيف اهتدى ليبنتز إلى هذه الفكرة العجيبة ؟ لابد أن نبحث عن

جذورها في مذهبه نفسه ، وسنجدها في فكرته عن المونادة كما نجدها في فكرته عن العملية . ان المونادة بسيطة ، ومعنى هذا انها غير مادية . والعملية عند ليبنتز آلية لا يمكن أن توجد إلا في عالم من الأجسام . ويترتب على هذا في نظره استحالة تصور علاقة عليية بين جواهر لا مادية . وهذه الفكرة شأنها شأن أفكار كثيرة غيرها توضح أن ليبنتز هو ابن عصره الخالص ، الذي لم يستطع أن يتحرر من القصور العلى الذى قيده الآلية في أغلامها الثقيلة .

ولعل لليبنتز بعض العذر في هذا ، فقد اهتم بالتفسير الآلى الذى كان من أهم الكشوف العلمية في عصره ، وان لم يسلم به مع ذلك تسليما أعمى . فهو يقبل فكرة الآلية من ناحية ، ولأى يريد من ناحية أخرى أن يفرط في فكرة الغائية . ولهذا نجده يحاول التوفيق بينهما ، كما حاول التوفيق بين كثير من الأفكار والآراء المتعارضة . ان كلا الرأيين يفسر أحداث العالم من وجهة نظر مختلفة ، فهذه الأحداث من وجهة النظر الغائية تخدم غرضا معيناً ، وهى تتم من وجهة النظر الآلية لأن الأجسام المادية التى تقوم عليها تحكم ببعضها على أساس القوانين الآلية التى لا تتغير . وهو يحاول أن يوفق بين وجهتى النظر كما قلنا بغير أن يحدد لكل منهما مجالاً يختص به ولا يعتمد . فيسلم بالفكرة الآلية التى تذهب إلى أن كل العمليات الفزيائية بما فى ذلك العمليات البيولوجية ، يمكن تفسيرها تفسيراً آلياً . ولكنه يحد من هذه الفكرة فيبين أن جميع الأحداث الفزيائية يمكن تفسيرها كذلك تفسيراً غائياً .

وهو يوضح هذا عن طريق التمييز بين « مملكتين » مملكة الجواهر المركبة أى الأجسام ، ومملكة الجواهر البسيطة أى المونادات . والعملية ( م ٣ — المونودولوجيا )

الآلية تحكم مملكة الأجسام ، أما مملكة المونادات فتحكمها الغائية وهاتان المملكتان ليعتبرا مستقلةتين عن بعضهما البعض ، ولا توجدان جنبا إلى جنب ، بل يكونان وحدة واحدة ، وإحدهما هي الصورة التي تظهر بها الأخرى . وهكذا فإن فكرة اتساق العالم التي تحدثنا عنها في سياق الكلام عن « الاتساق المقدر » لا تتأثر عندما نتحدث عن عالمين أو مملكتين للعلية والغائية . يعبر عن هذا قوله : « ومملكتا الملل الفاعلة والغائية متجانستان » ( المونادولوجيا ٧٩ ) .

هكذا توفق نظرية المونادات بين العلية والغائية . وهناك سبب فلسفي آخر جعله يتمسك بفكرة الغائية وهو تأكيد أن قوانين الآلية تقوم في الحقيقة على قوانين الغائية وتعتمد عليها . وتفسير هذا أن القوانين الآلية بطبيعتها قوانين عرضية حادثة ، أى يمكن أن تكون غير ما هي عليه في الواقع - إذ يمكن من الناحية المنطقية البحتة أن نتصور وجود عوالم أخرى تحكمها قوانين طبيعية أخرى مختلفة عن القوانين التي تحكم عالمنا . أما أن هناك قوانين معينة تحكم عالمنا فلا يمكن أن نقره إلا إذا سلمنا بحرية المبدأ الذي يقوم عليه العالم ، أى إلا إذا سلمنا بحرية الله التي تتجه إلى هدف أو غاية شأنها في هذا شأن كل حرية أخرى .

ومن هذا كله نرى أن القوانين الآلية للحركة تشير إلى أساس غائى تسند إليه ، وأن فكرة الغائية فكرة أساسية في فلسفة ليبنتز الطبيعية وبغيرها لا يمكن تصور هذه الفلسفة .

## (ب) الإنسان موناة عاقلة

كل ما قيل عن الموناة بوجه عام يمكن أن يقال أيضاً عن العقل الإنسانى . فهو بسيط لا يقبل القسمة ، وهو غير مادي ، لا يتسكون ولا يفسد بالموت . أنه مبدأ النشاط القاتئ ، رآه العالم كله . والذي يميز موناة العقل الإنسانى عن سائر الموناات هو طبيعة إدراكاتها . وهناك جزء من هذه الإدراكات يدخل فى شعورنا ، ويطلق لىبنتز على هذا الشعور أو هذه المعرفة التى تحصل لنا من إدراكاتنا إسم « الوعى » Apperception أضف إلى هذا أن إدراكاتنا الواعية تختلف فى درجة عمقها ووضوحها وتميزها عن الإدراكات التى تقم للنفس الحيوانية . والعقل الإنسانى موناة علمية تتحكم فى الموناات السفلى التى تكون الجسم البشرى ، شأنها فى هذا شأن النفس فى الحيوان ، ومبدأ الحياة فى النباتات ، ومبادئ الحياة التى تسيطر على الأجزاء العضوية المختلفة فى الكائنات الحية . ويقترض لىبنتز فى كل كائن حى هدداً لانهائية له من مبادئ الحياة المرتبة ترتيباً متسلسلاً ، أى من مبادئ تتحكم فى مبادئ أخرى أدنى منها كما تحكمها فى نفس الوقت مبادئ فوقها .

العقل إذا هو المبدأ الأعلى لحياة الإنسان ، وكثيراً ما قارن الباحثون بين لىبنتز وأفلاطون حول هذه النقطة التى تتصل بالنفس العاقلة . ولكنهم نسوا فى أغلب الأحيان أن فلسفة لىبنتز عن الإنسان فلسفة غير أفلاطونية بالمره . فالمعروف أن أفلاطون يمد النفس مسقولة عن البدن الذى حلت فيه ، وهى تقضى فيه زمناً ينتهى بانتهاء الأجل فتحرر منه وتنفصل عنه . فالبدن

هو سجن النفس ، أو هو قبرها على حد تعبيره المشهور في محاوره فايدون ( سوماسيا ) . ولكن ليمتقز ينظر للعلاقة بين النفس والجسم نظرة مختلفة كل الاختلاف فوجود العقل الانسانى فى رأيه يعتمد بالضرورة على وجود الجسد . وهو إن وجد فلا بد أن يكون مواندة رئيسية متمكنة فى مجموعة من المواندات الدنيا ، أعنى فى جسد عضوى ، ويستحيل عليه أن يكون غير ذلك ولهذا نجده يصف رأى أفلاطون فى وجود منفصل للنفس عن الأجساد بأنه « دعوى مدرسية » ( لاونادولوجيا ١٤ ) وواضح أن نظرة ليمتقز هذه إلى العلاقة بين النفس والجسد — وهى تختلف كما رأينا كل الاختلاف عن نظرة أفلاطون — هى النتيجة الضرورية المترتبة على مذهبه الميتافيزيقى . فإذا كانت المادة عند أفلاطون شيئا غريبا على العقل ، بل شيئا معاديا له ، فإن المادة عند ليمتقز هى المظهر الذى تتجلى فيه المواندات اللامادية ومعنى هذا أن المادة متعلقة بالعقل تعلقا أساسيا ، بل أنها العرشك أن تكون ذات طبيعة عقلية . ومعناه أيضا أن ليمتقز يشترك مع غيره من المثأثرين على النظرة اليونانية التى تنقص من شأن المادة وتقلل من قيمة الأشياء المادية . صحيح أن الصراع بين أنصار المادة وأنصار الروح لم ينته بعد ، وأن الحرب بينهما لم تحسم حتى اليوم ولا نظن أنها ستحسم بشكل نهائى — إذ يبدو أنه ليس من السهل أن نعطى العالم المادى المحسوس حقه بغير أن نبالغ بغير حق فى شأن الجانب السكى من الواقع على حساب الجانب السكى . وهذا هو الذى حاوله ليمتقز وترك أثره على فلسفته الانسانية . لقد فسر المادة من خلال المبادئ اللامادية الكامنة فيها وأتاح له هذا التفسير أن يصور العلاقة بين النفس والجسم أو بين العقل والمادة فى صورة الحاكم والمحكوم لافى صورة السجن والسجون ! .

كلنا يعرف حكاية الراهبين التي ساقها أفلاطون لاثبات خلود النفس . لقد أجهد نفسه في صياغتها ووفق في بعضها وخانه التوفيق في بعضها الآخر ، ولكنه جعلها جميعا لم تسلم من النقد . أما ليبنتز فهو يرى أن الخلود لا يحتاج إلى راهبين معقدة ولا بسيطة . إنه منرتب على مفهوم المونادة ، المونادات كما علمنا لا تقبل القسمة ، وهي لهذا خالدة . ولا شك أن هذا يسرى على مونادة العقل وقد يسأل سائل : كيف يوفق ليبنتز بين مبدأ خلود العقل ( أو الروح ) ومبدأ الارتباط الضروري الدائم بين العقل والجسد ؟ ينبغي ليبنتز أن يكون الترابط بين الجسد والنفس من النوع السكوني ( أو الاستاتيكي ) لأنه في الحقيقة يعبر عن علاقة حية إلى أبعد حد . فكل الأجسام في حالة تغير وتحول دائمين ، وحتى الأجسام العضوية تفقد باستمرار بعض الأجزاء وتكتسب أجزاء غيرها . وما نسميه « الموت » لا يمدو أن يكون حالة خاصة من أحوال التغير الدائم والصيرورة المتجددة . والنفس تفقد جزءا من المونادات التي تتحكم فيها ، ولكنها تحتفظ بأجزاء أو تكتسب أجزاء أخرى . ولهذا فليس هناك موت بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

وهذا هو ما يعبر عنه ليبنتز في المونادولوجيا ( ٧٢ — ٧٣ ) بقوله : « وهكذا فإن النفس لا تغير جسمها إلا ببطء وبالتدريج ، بحيث لا تجرد أبدا من جميع أعضائها دفعة واحدة ، وكثيرا ما يتم التحول بين الحيوانات ولكن تقمص الأرواح أو تناسخها لا وجود له على الإطلاق : كذلك لا توجد نفوس قائمة بنفسها أو مستقلة تمام الاستقلال ( عن الأجسام ) ولا أرواح بغير أجسام . إن الله وحده منزه عن الجسمية كل التنزيه . ولهذا السبب لا يوجد أبدا تولد كامل ولا موت كامل بالمعنى الدقيق ، أي

بمعنى انفصال النفس عن الجسد . وما نسميه بالقوالد إنما هو نوع من التطور والنمو ، أما ما نسميه بالموت فهو انكماش وتناقص » .

وهكذا يحاول ليبنتز أن يقلم مخالب الموت ويجعل منه حالة خاصة من العمليات البيولوجية العادية . ولا شك أن هذا شيء يستثير سخطننا ودهشتنا . فالموت يحيط بنا في كل لحظة ، وليس مجرد ضيف ثقیل نلقاه في نهاية الطريق . انه مأساة تنحيم على وجودنا كله ، ولولا تحديه الدائم ما كان فن ولا أدب ولا فلسفة . هو الصخرة الخالدة التي تدمى أجسادنا وأرواحنا على مر العصور . من قلل من خطره أو أخذه مأخذاً حيناً حرم نفسه أعظم ينابيع التأمل الفلسفي ، ومن واجهه بالكلمات الفخمة والبطولات الطغاة أضع سره العظيم الخفي ، ( فالفلسفة تأمل دائم للموت كما يقول أفلاطون ) وكلام ليبنتز عن الموت يوحى بأنه لم يفهم شيئاً عن هذا الجانب المظلم من وجود الإنسان وقدره . ولعله أيضاً أن يحملنا على مواجهة تفاؤله العقلي بالابتسام المرير ، بدلاً من أن يشجعنا على الفرح والبهجة بالحياة في أفضل عالم ممكن ! » .

إذا كانت العلاقة بين العقل والجسد العضوي شرطاً لا غنى عنه لوجود العقل نفسه ، فما هي طبيعة هذه العلاقة ؟ هل يمكن أن تكون نوعاً من التفاعل المشترك بينهما ؟ وهل يستقيم هذا مع فكرته عن انعزال المونادات التي لا نوافذ لها ؟ ألا يكون قد خان هذه الفكرة الأساسية في مذهبه ؟ الحق إنه ظل على وفائه لهذه الفكرة . ولهذا نجد عنده في النهاية نوعاً غريباً من ثنائية النفس والجسم . وهي ثنائية لم تنشأ عن اختلاف طبيعة الطرفين وماهيةتهما ، كما هو الحال مثلاً عند ديكارت ، بل جاءت من أن كليهما له طبيعة المونادة ، وهذه الطبيعة تحتم عليهما الانعزال والاكتفاء

الذاتى . ولكن هذا لم يمنعه من القول بوحدة النفس والجسم - وهو يفسر هذه الوحدة بنفس الطريقة التى يفسر بها وحدة العالم فى مجموعه ، أعنى بالرجوع إلى فكرته عن الاتساق المقدر أو التجانس والتوافق السابق فى علم الله . اسقمم إليه وهو يقول : « وقد اتاحت لى هذه المبادئ وسيلة تفسير لاتحاد النفس مع الجسم العضوى أو بالأحرى اتساقها معه تفسيراً طبيعياً . أن النفس تتبع قوانينها الخاصة ، كما يخضع الجسم لقوانينه الخاصة ، وهما يتوافقان بفضل الاتساق المقدر بين جميع الجواهر ، لأنها جميعاً تمثلات عالم واحد بعمقه » ( المونادولوجيا ٧٨ ) .

\* \* \*

إذا كانت هذه هى طبيعة العلاقة بين العقل الإنسانى والجسم ، فاهو القول فى نشاط العقل وفاعليته ؟ .

يرى ليبنتز أن معرفة الإنسان ونشاطه العقلى هى التى تحدد طبيعته . يقول فى الفقرة التاسعة والعشرين من المونادولوجيا : « بيد أن المعرفة بالحقائق الضرورية والأبدية هى التى تميزنا عن الحيوانات الخالصة ، وبها نحصل على العقل ونقزود بالعلوم ، حين ترتفع بنا إلى المعرفة بأنفسنا وبالله . وهذا هو الذى يسمى فينا بالنفس العاقلة أو العقل » ( ٢٩ ) .

ولكن عملية الإدراك ليست مقصورة على الإنسان . فالحيوانات تدرك أيضاً ، وهى قادرة على الربط بين المدركات عن طريق الخبرة والذاكرة . والمثل الذى يذكره ليبنتز يوشك بالإلهام والحدس الصائب أن يستيق تجارب بافلوف الشهيرة ، إذ يكفى كما يقول أن يرى الكلب العصا التى ضربه بها سيده لكي يعمى وينجو بجملده ، لأنه تذكر الألم الذى سبقه له فى المرة السابقة ! وإذا كنا لانستطيع أن نصف ليبنتز بأنه تجريبي ، فإن هذا

لا يمنعنا من الإشادة بحسه الواقعي السليم . فمعظم إدراكات الإنسان تترابط في رأيه بطريقة تجريبية مشابهة لطريقة ترابطها عند السكلاب ! بل إنه ليؤكد — بنغمة لاتخفى مرارتها — أن البشر تجريبيون في ثلاثة أرباع أفعالهم وتصرفاتهم ، ولهذا فهم في هذا الجانب السلوكي لا يختلفون في شيء عن الحيوانات . غير أن الربيع الباقى من أفعالهم هو الذى يميزهم حقا عن سائر الحيوانات . فمعرفة الإنسان لاتقف عند حقائق التجربة أو حقائق الواقع ، لأنها بطبيعتها حقائق عرضية يمكن أن توجد ويمكن ألا توجد . بل تتعداها إلى المعرفة بالعلل والأسباب ، ولهذا يمكنه أن يبصر العلاقات الضرورية بين الأفكار ، ويدرك حقائق العقل الضرورية الخالدة التى تقوهر فى المنطق والرياضة بوجه خاص .

بهذا يقف ليهنتز فى وجه النزعة التجريبية السائدة فى عصره ، على نحو ما نجد هاف فى فلسفة توماس هوبز ( ١٥٨٨ - ١٦٧٩ ) وجون لوك ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ ) . ولكن ينبغي علينا الانسواء فهم النقد الذى وجهه للنزعة التجريبية ، أو نتصور أنه يقل من قيمة الحقائق التجريبية . فالواقع إنه كان يقدر قيمة التجربة الحسية كل التقدير ، كما كان يقابع نتائج البحث التجريبى باهتمام لامزيد عليه ولم يكن هذا مجرد حب استطلاع أو رغبة فى الاحاطة الموسوعية بكل جديد . فالواقع يشهد بأنه استفاد فى بناء مذهبه بكثير من الدراسات العلمية التى تمت فى عصره ، كما كان له فضل الأسهم فيها . ويكفى أنه تنبه إلى نتائج البحوث التى قام بها العالم الهولندى فان لوفنهوك ( ١٦٢٢ - ١٧٢٣ ) الذى اكتشف عددا كبيرا من الكائنات الحية الدقيقة عن طريق الميكروسكوب ، كما استعان بهذه الكشوف فى تدعيم نظريته الحيوية — ( المونادولوجيا من ٦٦ - ٦٩ ) .

وإذا كانت التجربة الحسية تمثل عنصرا هاما من عناصر المعرفة البشرية ، فإن قيمتها في رأيه محدودة ولا يمكنها أن تستوعب إمكانيات المعرفة . وقد أشرنا إلى نقده للنزعة التجريبية وقلنا إنه لا يريد من هذا النقد أن يقلل من شأن الوقائع التجريبية أو يحط من قيمتها . فالواقع أنه يهدف من ورائه إلى ضمان الحقيقة ، الحقيقة التي لا تعتمد على الوقائع التجريبية بل تظل محفوظة بصدقها وقيمتها ولو تغيرت كل هذه الوقائع عما هي عليه . إنه يدافع عن هذه الحقيقة المطلقة بكل ما يملك من قوة وإخلاص ، ويحاول أن يدفع عنها أخطار النسبية والشك . وهو لا يكتفى بتأكيد إستقلالها العام عن المصالح البشرية ، والوقائع التاريخية ، بل يذهب إلى حد القول بأنها مستقلة عن إرادة الله لأنها ثابتة ومطلقة وخالدة خلود الله نفسه . ولأرب في أن هذا الموقف يستحق منا كل إعجاب وتقدير .

\* \* \*

ليست كل الحقائق ضرورية ولا أبدية . فلا بد في رأي ليبنتز من التمييز بين حقائق العقل الضرورية الخالدة وحقائق الواقع العرضية الحادثة . فالأولى هي التي لا يمكن تصور ضدها ، وإلا كانت متناقضة مع نفسها ، ومنها مبادئ الرياض والمنطق . أما الثانية فيمكن تصور ضدها ، ومنها الحقائق التاريخية وقوانين الفيزياء ( مثل قانون الحركة ) والقدرة على تصور تقيض الحقيقة أو عدم تصوره هو المعيار المنطقي الذي اعتمد عليه ليبنتز في التمييز بين حقائق العقل وحقائق الواقع .

بيد أن هذه التفرقة لا تلزم العقل البشري وحده . فقد نتصور أنها ترجع إلى قصور المعرفة البشرية ، وتقييد العقل بحدود لا يمكنه أن

يقطعها ، بحيث لو اتسع نطاق هذا العقل وزادت قدرته وأصبح في قوة العقل الإلهي لانقلبت الحقائق الواقعية إلى حقائق عقلية . وقد نجد في بعض كتابات ليبنتز ما يوحى بهذا التصور . ولكنه في الحقيقة تصور خاطئ . فالفرق الفاصل بين النوعين قائم بالقياس إلى الله ، بل أن ليبنتز يحاول أن يوضحه من وجهة النظر الإلهية نفسها . لقد تكونت حقائق العقل في العقل الإلهي المطلق ، ومنه إستمدت ضرورتها المطلقة . أما حقائق الواقع فترجع إلى إرادة الله ، وتستمد قيمتها من إرادة الخالق الذي شاء أن يختار هذا العالم من بين عدد لا حصر له من العوالم الممكنة . بيد أن اختيار هذا العالم ليس فعلا تعسفيا من جانب الله . إذ لا يمكن أن يفيض الله نعمة الوجود إلا على عالم واحد ممكن ، ألا وهو هذا العالم الذي هو أصلح وأفضل عالم ممكن . ومعنى هذا أنه يمكن تصور عوالم أخرى ممكنة ، ولكنها من الناحية التاريخية والواقعية مستحيلة التحقيق . كذلك يمكن تصور الضد المقابل للحقائق الواقعية ، ولكنه من الناحية التاريخية والواقعية مستحيل . وهكذا يمكن أن نقول ، بغير افتراء على تفكير ليبنتز ، أن الحقائق الحادثة تنطوي أيضا على نوع من الضرورة يمكن إذا جاز الوصف أن نسميها الضرورة المشروطة أو النسبية . والواقع أن الوعي بالضرورة المطلقة التي تميز حقائق العقل ، والضرورة النسبية التي تميز حقائق الواقع هو أهم ما أنجزه العقل البشري ، وهو كذلك أوضح ما يميزه عن سائر الحيوانات . إنه لا يقف عند تسجيل الوقائع التجريبية بل يكشف الحقيقة ويسعى إليها ، وهذا هو سر عظمته وكرامته . وهو المخلوق الوحيد الذي استطاع أن يؤصلها وينميها ، لأنه المخلوق الوحيد الذي أسس العلوم وعمل على تقدمها وإزدهارها . وأسمى هذه العلوم هو

العلم الرياضى الذى بلغت فيه حقائق العقل المخالدة أعلى صورها وأنقاها .  
فمبادئ الرياضة بغير استثناء تنتمى للحقائق الضرورية التى لا يرقى إليها  
الشك . والرياضة هى المثل الأعلى للعالم الثابت . ولهذا فليس عجباً أن  
يمدها لينتزع النموذج الذى ينبغى على سائر العلوم — بما فى ذلك الميكانيكا —  
— أن تقتدى به وتحقق مناهجه . ولينتزع عالم رياضى ، بل هو من  
أعظم علماء الرياضة فى كل العصور . ولا شك أنه تأثر فى كل هذه الآراء  
بتمسكه للنزعة الرياضية والعقلانية . ولكن تاريخ الرياضة أثبت صعوبة  
تحقيق آماله ، كما دلت البحوث والخلافات التى ثارت فى العقود الأولى من  
القرن العشرين حول أصول الرياضة أنها ليست من الثبات واليقين بالقدر  
الذى نقصوره .

ومم ذلك فقد أدى اهتمام لينتزع بالمناهج الرياضية إلى اكتشاف  
عظيم نشهد اليوم آثاره فى الأجهزة الحاسبة والسير نيطقيا والمنطق الرمزي  
.. الخ، ولا يمكننا أن نقدر أبعاده فى المستقبل . وهو فى صميمه اكتشاف  
بسيط مؤداه أن الإنسان يضطر فى أثناء التفكير إلى إستخدام الرموز  
والعلامات . والعلوم الرياضية توضح هذه الخاصية التى تميز الفكر البشرى  
فى أعلى صورته . فالرياضى يستخدم فى حساباته رموزاً وعلامات معينة  
تختصر عمليات رياضية طويلة ، واستدلالات عقلية معقدة . وهو لا يتوصل  
إلى نتائج الرياضية إلا لأن لغة الرياضة هى لغة العلامات . ولما كان  
التفكير الرياضى فى رأى لينتزع هو النموذج الأسى للتفكير البشرى  
عاماً ، فقد كان من اليسير عليه أن يخطو خطوة أخرى قصيرة لى يذهب  
إلى أن التفكير البشرى كله . باستثناء الأفكار الأولية التى يبدأ  
الإنسان منها — هو تفكير بالعلامات ، بل إن اللغة العادية التى نستخدمها

كل يوم هي أيضا نظام أو نسق من أمثال هذه العلامات ، وكل علاقة منها « تنوب » عن سلسلة معقدة من الاستدلالات الفكرية . وقد نسق عمل أثناء تفكيرنا علامة لا نعرف معناها ولا نشعر به على وجه التحديد . وبهذا يمكننا أن نخترزل عملية فكرية مرهقة ونصل إلى نتائج لم نكن لنصل إليها بغير هذا الاختزال . وخصوصية الفكر البشرى وقدرته على الإبتكار والإبداع تعتمد في الحقيقة أكبر اعتماد على نظام الرموز والعلامات الذي يستخدمه الإنسان عن وعى أو غير وعى أثناء التفكير . ومع أن العلامات أدوات نافعة كالأدوات إلا أن هذا النظم قد يخطو على أبلغ الأخطار . وقد أدرك لبيبتر ذلك إدراكا واضحا . ولعله قد أحس بفطرته الفلسفية الصائبة أن قائمة الأخطار التي نكمن في هذا الطابع الرمزي للفكر الإنساني قائمة طويلة تمتد من أقدم العصور ، وتحفل في كثير من الأحيان بالمصائب والحن وأنهاار الدماء . فمن السهل أن ينجح الإنسان في استخدام كلمة أو كلمات ترمز لمفهوم متناقض مع نفسه ، ولكنه بذلك يضل نفسه أو يضل غيره عن جهل أو سوء نية . وما من واحد منا إلا وقد عانى من السكسل العقلى الذى يروج الشعارات الرنانة الطنانة التى تلقى دون تربية أو روية ، فقبث سموها الساحرة فى الهواء الذى يقنفسه الناس . ومثل هذه الشعارات التى لم يتحقق أصحابها من محتواها أو تفننوا فى صياغتها بحيث يعتمد على الناس التحقق من صدق هذا المحتوى أو كذبه نسيء استخدام علامات اللغة ورموزها إما عن جهل أو سوء نية أو تخمس عاطفى أعمى . وتاريخ العالم الحديث عامر بالشواهد والأمثلة التى تدل على هذه القدرة الشيطانية على سوء استخدام العلامات اللغوية لخداع الناس أو السيطرة عليهم ، ولإستغلال عجزهم أو كسلهم أو خوفهم من التفكير المستقل .

وإذا كانت اللغة - بوصفها نسقا من العلاقات - هي أداة الفكر  
البشرى فمن واجبنا أن نختبر مدى كفاءة هذا النسق وفاعليته . ويشك  
ليمنتز في صلاحية اللغة اليومية للتفكير العلمى وقد قضى حياته فى البحث  
عن نسق من العلامات يفيد العلم ويحقق له التقدم . فنحن نجد فى المشرى  
من عمره مشغولا بمسماه « فن التركيب أو التأليف »<sup>(١)</sup> « إذ رأى أن من  
الممكن اكتشاف نوع من « ألف باء التفكير البشرى » عن طريق  
التحليل المستقر للمفاهيم والتصورات التى نستخدمها ، بحيث يمكن أن نبني  
لغة أكثر دقة ونفعا وإحكاما . ثم نصل بعد ذلك إلى فكرته الشهيرة عن  
« الخصائص السكائية »<sup>(٢)</sup> ، التى أراد بها تحقيق نظام من العلامات يمكن  
أن يفهمه كل إنسان ، كما يمكن أن يحل فى العلم محل اللغة  
الدارجة . وقد كان يحلم بأن يضع مكان كل تصور شكلا مميزاً أو رقما  
أو علامة رمزية . بحيث يمكن رد العلوم كلها إلى عمليات رياضية خالصة ،  
والانتهاء بذلك على المجادلات والخلافات العقلية بينها . بل لقد ذهب به  
الخيال إلى حد القول بأن المبشرين لو استخدموا هذه اللغة العالمية الشاملة  
لأمكنهم إقناع الناس جميعاً بالعتيدة المسيحية ، على نحو ما يقنع جميع  
الناس بالعلوم الرياضية ! ربما نقابل اليوم هذه الفكرة بالابتسام ، ولكننا  
تعبّر فى الواقع من نزعة التفاؤل والإيمان الساذج بالعقل التى غلبت على عصر  
التنوير . ومع ذلك قد يكون من الخطأ أن نتجاهل أهمية هذه الفكرة  
التي تدل كمبرها من أفكار الفيلسوف على الأصالة وبعد النظر . فلاحاجة

---

(1) Ars c ombinatoria

(2) Characteristica universalis

بنا إلى القول بأن التعرف على الطابع الرمزي لقصورنا والانتباه إلى مزاياه وعيوبه يمكن أن يعيننا على الدقة في التفكير ، والوعى بحدود اللغة والأخطار الناجمة عن سوء استخدام الكلمات والتلاعب بها دون تمحيص وتحقيق بل دون وازع من ضمير . أضف إلى هذا أن البحث عن نظام كفاء من الرموز والعلامات لا يزال مستمرا إلى اليوم ، كما أن تطبيق المناهج الرياضية على العلوم المختلفة قد تزايد نطاقه في العصر الحديث وأدى إلى نتائج جديدة بالاهتمام والإعجاب ، وخصوصا في النطق الرمزي أو « اللوجيستيك » الذي يعد ليبنتز أباه الشرعي دون جدال ! ومع ذلك فلا بد من القول بأن المحاولات التي تبذل لصياغة كل تفكير علمي صياغة رمزية رياضية وإخضاعه للمناهج الرياضية هي في الحقيقة محاولات تبدأ بداية خاطئة لاتخلو من القطر والشطط . ولا يرجع هذا إلى قدرة التفكير الإنساني على تجاوز حدود العلم الرياضى إلى آفاق أوسع منه وحسب ، بل يرجع كذلك إلى وجود مجالات من الواقع لاتعرف الرياضة عنها شيئا . وهذه حقيقة تصدق على عصر ليبنتز كما تصدق على عصرنا سواء بسواء . وما أصدق قول هاملت لصديقه هوراشيو : أن في العالم ياهوراشيو مالاتباهه حكمك المدرسية ! .

\* \* \*

يوصف مذهب ليبنتز في كتب تاريخ الفلسفة بأنه مذهب « عقلاني » . ولا شك أن هذا الوصف صحيح بوجه عام . ولكن الفلسفة العظيمة ، شأنها شأن الأدب العظيم ، أكبر من الاسم الذي يطلق عليها ، وأعمق من الشعار الذي يلصق بها أو التصنيف الذي تحبس في خائته ! والدليل على هذا أننا

نجد في فلسفة ليبنتز الانسانية ( أو الأنثروبولوجية ) لمحات . يتعذر أن نجد لها في أعمال الفلاسفة العقلانيين . كان ديكارت فيلسوفا عظيما بغير شك . ولكن حماسه الشديد لوضوح الفكرة وتميزها وصفاء العقل وبدايته قد صرفه عن النظر في طوايا النفس الإنسانية ، وقصر به عن الغوص إلى الأعماق السكائمة تحت سطح الوعي . وقد خالف ليبنتز الديكارتيين في هذه النقطة كما خالفهم في غيرها . فنحن نجد لديه لمحات صادقة مما نسميه اليوم باللاوعي أو اللاشعور . مكنته نظريته عن المونادة وطبيعتها إدراكاتها أن يقدم نظرية عن اللاوعي السكامن في أعماق النفس . فالمونادة كما نعلم تمسك العالم كله ، ولكنها تمسكه من وجهة نظرها فحسب ، لأن المونادة الإلهية وحدها هي القادرة على الرؤية السكلية الشاملة . ولما كان الانسان عاجز عن إدراك العالم بأكمله ، فلا بد أن يكون في العقل البشري مجال للإدراكات غير الواعية . ولما كانت الإدراكات كلها تنشأ عن إدراكات سابقة عليها . كانت الإدراكات اللاوعية هي التربة التي تنمو فيها حياة النفس الواعية . ويرى ليبنتز أن الأعماق السكائمة في العقل الانساني هي المصدر المباشر لكل معرفة . أن المعرفة لا تأتي من العالم الخارجي . وكيف يتسنى لها ذلك ، وكل مونادة تعيش منعزلة مغلقة على نفسها « بلا نوافذ » ؟ .

أن أصول المعرفة موجودة في كل مونادة فردية ، أي في كل عقل على حدة . وهي تنشأ وتنمو عن طريق النشاط الباطن ، بحيث تتقدم من إدراك إلى إدراك وتصل إلى أكبر قدر من الوضوح والتمييز . ولا يتردد ليبنتز في وصف النشاط العقلي للانسان بأنه نشاط مبدع ، فليست العلوم في رأيه مجرد انعكاس للعالم ، وإنما هي نتيجة نشاط تلقائي

خلاق يتم في نفس الانسان وعقله ، وليس العالم مجرد حيوان مثقف ، وإنما هو في الحقيقة إله صغير . ولنسمع في النهاية إلى ما يقوله ليجنتز في تمجيد الانسان المبدع ، صورة الله وخليفته على الأرض .

« إن النفوس على وجه الأجسام مرايا حية أو صور من عالم المخلوقات ، أما العقول فهي بالإضافة إلى ذلك صور من الألوهية أو من مبدع الطبيعة ذاته ، أنها تملك القدرة على معرفة نظام العالم ومحاكاة شيء منه في عينات ( أو نماذج ) معمارية خاصة ، إذ أن كل عقل في مجاله أشبه « بالوهية صغيرة » — ( المونادولوجيا ٨٣ ) .

### ( ج ) العالم والانسان والله :

لا زالت مشكلة الله من أهم المشكلات التي شغلت الفلاسفة وسوف تشغلهم على الدوام . جعلها البعض تاج البحث الانساني عن المعرفة ، وعدها البعض الآخر خطرا يهدد الفلسفة في الصميم . ولكلا الفريقين وجهة نظره التي تستحق منا وقفة قصيرة . فقد يتفق للعقل البشري ، بعد رحلة شاقة في مجاهل الفكر ، أن ينفذ للمطلق ( وهو ما نسميه الله ) فيرى فيه الهدف الأخير ، وتبدو له الرحلة وكل ما وجده على الطريق في ضوء غامر جديد . ولعل هذا أن يكون هو السبيل إلى بلوغ الوحدة العليا لكل ما هو كائن . فقد كانت الوحدة منذ البداية هي موضوع الفلسفة الأثير ، إن لم تكن هي موضوعها الوحيد - غير أن هناك من يحرم على الفلسفة أن تبحث في مشكلة الله ، وينسكرك على الفلسفة أن يضعوا نظرية عنه أو دليلا على وجوده . فالفلاسفة في رأيهم يخرجون بذلك عن وظيفتهم ، أو يتهربون من مواجهة المشكلات الفلسفية الحقيقية ، أو يدارون كسلهم العقلي ، أو يتحاشون الاعتراف بأنهم ساروا في طريق مسدود .

ولا شك أن التفرقة واجبة بين إنسان ينطلق من دوافع جادة فيصل إلى معرفة الله من طريق البحث النزيه ، وبين إنسان يسعى استخدام فكرة الله للتخلص من المشكلات التي تواجهه ، أو يسلك إليه طريق الفلسفة مدفوعا بدوافع غير فلسفية .

وقد عاصر ايميتز فلاسفة أساءوا استخدام فكرة الله ، أو أسندوا إليها وظيفة لا تسلم من النقد والاعتراض . فها هو ذا ديكارت يعتقد أن وجود العالم الخارجى رهن بوجود إله صادق لا يمكن أن يخدعنا . وها هم ( م ٤ - المونادولوجيا )

أصحاب مذهب المناسبة Occasionalists وفي مقدمتهم أرنولد جيلينكس<sup>(١)</sup>، وقد لجأوا إلى الله لكي يفسروا العلاقة بين النفس والجسم - التي لم يستطع ديكارت أن يقدم لها تفسيراً مرضياً . قالوا إن النفس كلها أرادت أن تحرك جسدها علم الله بمقصدها فسبب الحركة على الفور . وقد عجز مالبرانش عن تفسير معرفة العقل البشرى بالحقائق الأزلية ، لمجوزه عن إدراك القوى الخلقية للمعرفة التي تسكن في العقل نفسه ، ولهذا لجأ أيضاً إلى الله -- فالله ، وهو الحقيقة المطلقة ، مائل للعقل ، وهذا العقل يدرك الحقائق الأزلية في الله مباشرة .

وقد وقف ليبنتز في وجه ديكارت وأصحاب مذهب المناسبة ولم يقبل رأى مالبرانش بغير نقد وتمحيص . ولكن هذا لا ينفي أنه كثيراً ما لجأ لفكرة الله ليعتدل على المصاعب التي تواجه مذهبه . ويكفي أن نتذكر فسركته عن الاتساق المقدر . فالمونادات يستحيل عليها أن تؤثر على بعضها البعض تأثيراً سببياً ، والتفاعل بين الأجسام والمونادات - وهي عقول هذه الأجسام وأرواحها - شيء لا يمكن تصوره . ومن ثم فلا يمكن تفسير الاتساق الظاهر في العالم إلا بالرجوع إلى الله الذي خلق المونادات وأوجد الاتساق بينها منذ البداية . وقد رأى ليبنتز في ذلك دليلاً جديداً على وجود الله لم يسبقه أحد إليه . ولكنه كما ترى دليل ضعيف لا يسلم من النقد ، فقد استخدم فكرة الله أو بالأحرى أساء استخدامها ليجد مخرجاً من طريق فلسفي مسدود .

قد نستطيع أن ننكر أدلة ليبنتز على وجود الله أو نشكك فيها من

---

(١) A. Geulincx وسيأتي الحديث عنه بالتفصيل .

وجهة نظر مذهبية ، واسكتنا لا نستطيع أن نذكر الجهود الخاصة التي بذلها في حديثه عن الله وتذكيره فيه تفكيراً منطقياً . وبجعل هذا في نقده للدلائل الديكارتية على وجود الله فقد استنتج ديكارت وجود الله من فكرة الكائن المطلق السكالم ، لأن الكائن السكالم إذا افقر إلى الوجود فلن يكون مطلق السكالم . ويمترض ايمنقز على هذا فيقول إن ديكارت لم يثبت إمكان هذه الفكرة . فربما كانت فكرة « الكائن المطلق السكالم » فكرة متناقضة في ذاتها ، مثلاً مثل فكرة « العدد الأكبر » . غير أن ايمنقز يعتقد أنها فكرة يمكن إثبات خلوها من التناقض ، وعندئذ يكون الدلائل الديكارتية مقنعة وحاسماً . فمن إمكان وجود كائن مطلق السكالم يمكن استنتاج واقعية هذا الوجود بالفعل . إن وجود الله ، كما تقول المونادولوجيا ( ٤٠ ) — نتيجة بسيطة مترتبة على إمكان وجوده . وهكذا فإن الله وحده ( أى الوجود الضروري ) يتميز بأنه يجب أن يوجد إذا كان ممكناً . ولما لم يكن هناك شيء يمكنه أن يمنع إمكان ذلك الذي لا حدود له ، ولا يتضمن سلباً ولا تناقضاً فإن هذا يجعلنا بالضرورة قادرين على معرفة الله معرفة قبلية Apriori ( المونادولوجيا ٤٥ ) ومنذ أن صاغ القديس أنسيلم ( ١٠٢٣ - ١١٠٩ ) هذا الدليل الشهير في بداية العصر الوسيط والفلسفة المدرسية والآراء تختلف حوله بين الإعجاب والإنكار — وقد كان القديس توماس الاكوينى كما كان كانت من أهم معارضيهِ . ومهما تكن وجهة الأسباب التي يقدمها معارضوه فسوف يمترون بغير شك بأن الحجج التي يقدمها مؤيدوه لا تخلو من القوة — ولا بد على كل حال من فهم الدلائل فهماً يقوم على اعتبار الإطار الفلسفى الذى نشأ ثم تجدد فيه . وقد كان هذا الإطار دائماً هو الفلسفة المثالية التي تطمح أن تكون في نفس الوقت فلسفة

واقعية ، ومن ثم سميت بحق المثالية الواقعية . يصدق هذا على ليبنتز كما يصدق على القائلين به قبله .

ومع هذا فليس الدليل الانطولوجي في نظر ليبنتز بالدليل الوحيد على وجود الله ولا هو الدليل القاطع عليه . فهو يقول بدليل « بعدى » Aposteriori آخر يقوم على الحدوث أو على إمكان الأحداث في العالم ، فكل ما يحدث في العالم ، وكل ما يوجد فيه ، ممكن ، أى أن عدم وجوده أمر ممكن من الناحية المنطقية . فاذا وجد في الواقع شيء كان من الممكن ألا يوجد ، فلا بد أن يكون هناك سبب كاف جملة يوجد بدلا من أن يكون عدما — فما هو هذا السبب ؟ سواء فسرنا الأحداث الممكنة بأسباب متناهية ، أو رحنا نبحث عن تفسير لها في مجال اللامتناهى ، فلن نزيد في الحالين على تقديم أسباب أو علل هي بدورها أسباب ممكنة . ولن ينسنى لنا بهذه الطريقة أن نعتز على سبب كاف للممكنات أو الحادثات . لا بد إذا أن يوجد هذا السبب السكافي خارج سلسلة العلل والأسباب الممكنة ، ولا بد أيضاً ألا يكون هو نفسه ممكنا ولا حادثا ، أى لا بد أن يكون جوهرأ ضروريا . هذا الجوهر الضروري هو الذى نسميه الله . ولا شك أن تفسير ليبنتز هنا مختلف كل الاختلاف عن تفكير أولئك الذين يلجأون إلى الله ويصطنعون اصطناعا لعجزهم عن المضى بتفكيرهم إلى غاية مقنعة ، أو يأسهم من قصور العقل البشرى الذى تعب من عناء السفر فألقى مراسيه عند أقرب مرفأ ؟ ولعل الله في هذه الحالة أن يكون أشبه « بالإله الآلة » (١) الذى كان ككتاب المسرح اليونانى والرومانى يلجأون إليه لانتهاء المسرحية

وحل الأزمة الدرامية التي عجزوا عن السير بها إلى حل طبيعي نابع من تطور الأحداث نفسها . لم يفعل ليبنتز شيئاً من هذا ، بل ظل على إخلاصه للحقيقة مهما طال الطريق . ولم يكن الله عنده مجرد فرض يرضى مطالب الفكر الذى يريد الراحة والعزاء فى المطلق ، ولا كان حلقة أخيرة فى سلسلة من الأسباب الممكنة . وإنما هو « السبب الكافى » الذى يجعل كل حلقة من حلقات السلسلة ممكنة ، بحيث يستطيع الفكر أن يصل إليه إذا انطلق من أية حلقة منها .

ويقيم ليبنتز دليله على وجود الله على الحقيقة، مثله فى هذا مثل أفلاطون والقديس أوغسطين . فإذا كانت الحقائق خالدة وثابتة، فإن ليبنتز لا يستنتج من ذلك وجود إله يكون هو المبدأ الخالد الثابت لهذه الحقائق . وإنما يتهج طريقاً آخر يدل على طابع تفكيره . فهو يستنتج من واقعية الأفكار ( أو المثل ) الخالدة والحقائق الأبدية التى نعتمد عليها ضرورة وجود علة أو سبب لهذه الواقعية . إن امكان الأفكار - أى إمكان تصورها - وضرورة الحقائق الأبدية ليسا إلا صورة من صور الواقع ، ولا بد أن يكون مصدر هذا الواقع موجوداً بالفعل ، ولا بد أن يكون ضرورة الأفكار والحقائق نفسها . ويمبر ليبنتز عن هذا الدليل فى الفقرتين رقم ٤٣ و ٤٤ من المونادولوجيا . ولو قرأنا هاتين الفقرتين وتأملنا الدليل جيداً لأدركنا أن وصف فلسفته بالمثالية الواقعية أو المثالية الموضوعية لم يكن وصفاً بعيداً عن الصواب . فاثبات وجود الله على أساس الحقيقة هو الوجه المقابل لإثبات وجوده على أساس الحدوث أو الإمكان ، وبينما ينطلق الدليل الأخير من الطابع الفعلى والواقعى للممكن، نجد الدليل الأول ينطلق من واقعية الضرورى . وبؤ من ليبنتز بأن وجود الله فوق كل شك إن الله هو مصدر الحقائق

الأبدية الخالدة ، وهو كذلك خالق العالم الممكن . والإمكان الذى هو صفة العالم لا يعنى أن هذا العالم يمكن ألا يوجد فحسب ، بل يعنى أيضا أن العالم يمكن أن يكون مختلفا عما هو عليه بالفعل . ويعتقد ليبنتز أن هناك عددا لا نهاية له من العوالم الممكنة ( والإمكان هنا ينصرف كما قدمنا إلى إيمان التصور ) ولو سأل سائل : لماذا اختار الله هذا العالم بالذات من بين العوالم الممكنة التى لا حصر لها لكان سؤاله فى حاجة إلى جواب . إذ لا بد أن يكون هناك سبب كاف لهذا الاختيار ، شأنه فى ذلك شأن كل شىء آخر . ويعتقد ليبنتز أنه يستطيع أن يقدم الجواب . فالعقل الإلهى فى رأيه قد تحقق من أن عالما واحدا من بين العوالم الممكنة ، وعالما واحدا فحسب ، هو أفضلها جميعا ، لهذا شاءت إرادة الله أن تختار هذا العالم الأفضل ، تمشيا منها مع قانون الأصلح والأفضل .

هكذا يصل ليبنتز إلى فكرته المشهورة عن أفضل عالم ممكن . وهى الفكرة التى طالما اتنى عليها البعض وسخر بها البعض الآخر من السخرية ! ولقد كانت الفكرة ملائمة لذوق العصر الذى نشأت فيه مع بداية القرن الثامن عشر . فقد نسى الناس حرب الثلاثين وما جرت به على أوروبا من كوارث وويلات ، واستوى « الملك الشمس » لويس الرابع عشر على عرش فرنسا المترفة المزدهرة ، وشاع تفاؤل عصر القنوير فى شرايين الحياة العقلية والروحية . غير أن كارثة رهيبه كانت تقف لهذا التفاؤل بالمرصاد . فقد فوجئ الناس فى سنة ١٧٥٥ بزلزال لشبونه المشهور الذى قتل فيه أكثر من ثلاثين ألف إنسان . ولا بد أن هذه الكارثة قد حفرت آثارها العميقة فى الروح الأوروبية ، وزعزعت تفاؤلهم وإيمانهم الأعشى بانتصار العقل . وقد استوحى فولتير روايته الفلسفية « كانديد » ( ١٧٥٩ ) من هذا الحادث

فـسـكـانـت سـمـخـريـة عـضـت تـفـاؤـل لـيـبـنـتـز بـأـنـيـا بـهـا الحـادـة ١ والـواقـع أن شـعـار « التـفـاؤـل المـيـقـافـيـز يـقـى » الـذـى أـطـاق عـلى نـظـريـة لـيـبـنـتـز عـن أـفـضـل العـوالم المـمـسـكـنة قـد يـبرـر البـواعـث النـفـسـيـة الـتى أـدت إلـيـها ، وـلـكـنـه لا يـصـل إلـى جـذـورـها . لـم يـكـن لـيـبـنـتـز بـطـبـيـعـة الحـال مـعـصـوب العـيـنـين عـما يـجـتـاح العـالم مـن شـر و بـؤـس و عـذاب و مـوت ، وـلـكـنـه كـان يـعـتـقـد أنـنا لـن نـسـتـطـيـع أن نـقـدم سـبـبـا كـافـيـا يـبرـر و جـود هـذا العـالم إلـا إـذا كـان هـو أـفـضـل عـالم مـمـكـن . و قـد يـسـأل سـائـل : و لـمـا ذـا لا تـبـحـث عـن هـذا السـبـب الـسـكـافـى فـى إـرـادـة اللـه الحـرة ؟ و حـريـة الإـرـادـة فـكـرـة رـحـبـة مـتـعـدـدة الجـوانـب و الأـبـعـاد . و لـأـشـك أن أـحـسـاس لـيـبـنـتـز بـهـا — كـأـحـسـاسـه بـالمـوت و الشـقـاء البـشـرى — كـان يـقـتـر إـلى النـبـض الإـنـسـانـى . و لـكـنـه ظـل عـلى كـل حـال مـقـسـمـا مـع فـكـرـة و مـنـطـق مـذـهـبـه . فـهـو يـعـيـل إـلى جـانـب القـانـون و الرـيـاضـة و المـنـطـق . و إـذا بـدأ لأـحـد أن يـضـع الحـريـة فـى مـقـابـل الخـضـوع لـلقـانـون و جـد نـاه يـعـيـل لـهـذا الجـانـب الأـخـير . و مـا مـن شـك فـى أنـه سـيـر فـض أن يـتـرك الأـمر فـى خـلق العـالم أو عـدم خـلقـه لإـرـادـة اللـه ، و سـيـر فـض كـذـالك أن يـتـرك لـها الشـأن فـى خـلقـه عـلى هـذا النـحـو أو ذـاك . فـمـن رآيـه أن اللـه لـم يـكـن لـيـخـلـق غـير هـذا العـالم الـذـى خـلقـه بـالفـعل . صـحـيـح أن هـنـاك عـددا لا يـنـتـهـى مـن العـوالم المـخـتـلـفـة المـمـسـكـنة . و لـكـن يـجـب ألا نـنـسـى مـا قـلـنـاه مـن أن الإـمـكـان هـنا يـعـنـى إـمـكـان تـصـورـها مـن النـاحـيـة المـنـطـقـيـة ، لا مـن نـاحـيـة التـحـقـق الفـعـلى . فـالـعـالم الـمـوجـود بـالفـعل هـو العـالم الـوـحـيـد الـذـى يـمـكـن تـحـقـقـه فـى الـواقـع ، بـحـيـث لا يـخـتـلـف عـما هـو عـلـيـه بـالفـعل ، و بـحـيـث يـشـمـل عـلى كـل مـانـعـرفـه فـيـه مـن أـفـرـاد و أـحـدـاث . فـلـيـبـنـتـز إـذا بـيـارـك كـل مـا هـو مـوجـود و كـل مـا هـو واقـع ، لا لـسـبـب إلـا لـأنـه ضـرـورـى ، و لـأنـه كـان حـقـمـا أن يـوجـد عـلى الصـورـة الـتى و جـد عـلـيـها . و لا بـد أن القـارىء قـد لـاحـظ فـى هـذا

الرأى شيئاً من التمتع جيد للجانب التاريخى من الوجود . ولا بد أنه لاحظ أيضاً أن الشر والألم والموت لن تكون إلا خيوطاً غريبة على نسيج التجانس والانساق والانسجام الكلى ، أو أنهما قليلة نادرة في سياق المكن الأزلى الرائع .. وربما يسأل : ألا تكون حرية الفرد مهددة في هذا العالم الذى هو أفضل عالم ممكن ؟ الحق أن لينتقز يتحدث عن الحرية البشرية حديثاً مأثوً الدفء والأخلاص ، ولكننا انظرنا إلى هذا الحديث فى إطار المذهب العام لفقد كثيراً من قدرته على الاقتناع . ومن يدري ؟ فربما يعزينا قليلاً أن حرية الله والإنسان كليهما مهدد بالخضوع الشامل للقانون ! .

رأينا من قبل أن لينتقز ينظر للعقل الإنسانى نظرتة « لصورة الألوهية » ، بل أنه ليعده « الها صغيراً » . وقد دفعه على هذا الرأى المثالى النبيل ما وجدته فى هذا العقل من نشاط يتمثل فى تقدم العلوم وازدهارها . ولكن هذا الرأى دفعه من ناحية أخرى إلى إقامة علاقة خاصة بين الله والعالم . وهما هو ذا يرجع إلى فكرة القديس أو غسطين المشهورة عن « مدينة الله » لتوضيح هذه العلاقة . ويكفى أن نقرأ ما يقوله عن ذلك فى المونادولوجيا ( ٨٤ — ٨٦ ) : « وهذا هو الذى يجعل العقل قادرة على الدخول مع الله فى نوع من الحياة الجماعية ، بحيث لا يكون الله بالنسبة إليها كالمخترع بالنسبة لآلته فحسب ( كما هو الحال بالقياس إلى علاقة الله بسائر المخلوقات ) وإنما يكون كذلك كالأمير بالنسبة لرعائاه ، بل كالأب بالنسبة لأبنائه . من هذا نستنتج بسهولة أن مجموع العقول يؤلف بالضرورة مدينة الله ، أى أكمل مدينة ممكنة فى ظل أكمل الحكام . أن مدينة الله هذه ، هذه المملكة السكلية بحق ، هى عالم أخلاقى داخل العالم الطبيعى ، وهى أسمى أعمال . الله وأكثرها ألوهية » .

الإنسان إذا هو شريك الله في « مدينة الله » ، أو في « مملكة العناية » .  
ليس مجرد كائن طبيعي ، بل هو شخص قادر على الحب وجدير به . وليس  
أجل من كلام لايبنتز نفسه تعبيراً عن هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان ،  
فقد كتب إلى صديقه وراعيته الأميرة صوفي في الرابع من نوفمبر سنة ١٦٩٦  
رسالة يقول فيها إن العقل الإنساني قادر على معرفة الله ، وهذه المعرفة هي  
الأساس الذي تقوم عليه رسالتنا الأخلاقية والحضارية : أن اسمى العقول  
( الأرواح ) جميعاً هي التي تملك القدرة على فهم الحقائق السرمدية ، ولا تكفي  
بتمثل العالم تمثلاً غامضاً بل تفهمه وتحصل على أفكار واضحة عن خيرية  
الجوهر الأسمى وعظمته . ومعنى هذا ألا تكون مرايا للعالم وحسب ( فكل  
الأرواح كذلك ) وإنما تزيد على هذا فتكون مزايا تعكس خير ما فيه ،  
أي الله ذاته . . وهذه هي ميزة العقول ، وهي التي تعينها على حكم  
الموجودات الأخرى - باعتبارها صورة الله .

(د) ملامح عامة :

كل فلسفة تستحق هذا الاسم أشبه بكائن عضوى حى ، مثلها فى هذا مثل كل عمل باق فى الأدب والفن والعلم والحياة .

وقد حاولنا جهد الطاقة أن نتعرف على الخطوط العامة التى يتألف منها نسيج هذا الكائن ، والأعمدة التى يقوم عليها هيكله . وعليها الآن أن ننظر من الخارج ، لعل الرؤية السكلية أن تكشف عن أبرز قسائمه وملامحه .

ربما كانت « الوحدة » هى أول ما يلتفت النظر فى فلسفة لبينتز . فهى فلسفة تحاول أن تضم الكثرة فى مركز واحد أو بؤرة واحد . صحيح أن التجربة تعلمنا كل لحظة أن الأشياء متعددة ومتنوعة . ولكن الفلاسفة يتساءلون منذ القدم : أهناك وحدة تضم هذه الكثرة الهائلة من الأشياء ، وعلى أى نحو تتم ؟ أم أن هذه الوحدة شىء من صنع العقل الذى يفرضها على الموجودات المتعددة بطبيعتها ؟ .

أجاب أفلاطون على هذا السؤال فافتراض وجود « أيدوس » أو مثال أو نموذج تشارك فيه أشياء مختلفة ، ثم حاول بعد ذلك أن يوحّد بين هذه المثل والنماذج العديدة فى مثال أعلى ونموذج أشرف وأسمى ، سماه « الله » حينئذ ، والخير فى معظم الأحيان . وقد تابع لبينتز خطى أفلاطون فى بحثه عن الوحدة التى تجمع الكثرة ، ولكنه سلك منهاجاً يختلف عن منهاج أفلاطون . فهو يتحدث مثله عن أفكار أبدية خالدة ، أى عن مثل أو نماذج أولى لكل المخلوقات وهذه المثل والنماذج كائنة فى عقل الله . إن جميع الأشياء المتناهية على علاقة ببعضها البعض ، وهذه العلاقة تؤلف بينها فى وحدة حقيقية . ولهذه العلاقة نفسها وجهان ، فهى تعبر من ناحية عن

أن جميع الأشياء المقناهية إنما هي في نهاية الأمر موناتات ، أى كائانات واحدة أو « أحادات » ، كما تعبر من ناحية أخرى عن أن كل موناة منها تعكس العالم كله ، أى تعكس جميع الموناتات الأخرى على صفحة مرآتها . وهكذا لا يرى ليمنتز أننا يمكن أن نتكلم عن وحدة العالم دون أن نضطر في نفس الوقت للتكلام عن مبدأ لهذه الوحدة من خارج العالم ، سواء أكان هذا المبدأ هو الله أم الأفكار . ولكنه يرى من ناحية أخرى أنه لا يمكن تفسير هذه الوحدة القائمة داخل العالم إلا بالرجوع إلى الله ، لأن الله هو أصل جميع الموناتات الخلوقة أو المقناهية ، وعلة تجانسها وإتساقها مع بعضها البعض .

لقد قيل بحق إن ليمنتز قد انزلق أثناء بحثه عن الوحدة التي تضم كثرة الموجودات إلى نوع من الواحدية النفسية أو الروحية التي تعبر عنها هذه الجلة : كل ما هو موجود ، فهو من جوهر الروح أو العقل ( الموناة ) . وقيل أيضا إن فكرته الصحيحة عن تعلق كل موجود له طابع الجسم بكل موجود له طابع الروح أو العقل قد بولغ فيها مبالغة كبيرة في فكرة أخرى خاطئة تقول بأن العقل أو الروح كما نجربها في أنفسنا هي الموجود الوحيد الممكن . ومع ذلك فقد نستطيع أن نرد على هذا الزعم فنقول إنه إذا صح إتهام ليمنتز بأنه أقام نوعا من الواحدية فيما يتصل بعالم التجربة والخبرة ، فإن من الخطأ البالغ أن تنسب إليه تلك الواحدية المطلقة التي ينفي فيها الفارق بين الله والعالم . ذلك لأن ليمنتز يذهب بوضوح إلى أن الله متعال على العالم ، وهو يعبر عن هذا الرأي على النحو التالي : أما أن كل موناة تؤلف مع موناتات أخرى الجسم الذي تحكمه موناة مركزية ، وأما أن تكون هي نفسها موناة ذلك الجسم ، كما أن الموناة المركزية التي تقوم

بوظيفة النفس أو الروح يمكنها ، بالاشتراك مع موناتات أخرى ، أن تؤلف الجسم المتعلق بشكل أعلى للروح . وبهذا نعتبر الله ، وهو المونادة الأصلية ، بمثابة الروح العليا كما نعتبر عالم الموناتات المتناهية بمثابة جسم الله . ولكن هذا كله أبعد ما يكون عن تفكير ليبنتز الذى يرى أن الله لا يدخل فى تكوين النسيج الذى يؤلف عالم الموناتات المتناهية . فهذه الموناتات المتناهية جميعا ، حتى أسمى العقول وأعلى الأرواح ، تعتمد دائماً وبالضرورة على موناتات أخرى تكون الجسم الذى تتعلق به ، أما الله ، والله وحده ، فهو مبرأ من الجسمية ، منزّه عنها . كل التنزيه ( المونادولوجيا ٧٢ ) هكذا يصل تفكير ليبنتز فى سعيه إلى الوحدة إلى الحد الذى يقف عنده . ومهما أغراه مذهبه بتخطى هذا الحد أو أوحى به إليه ، فإنه يظل على تمسكه به ولا يتعداه .

هذا البحث عن الوحدة وراء القنوع ، وهذا الاقتناع بأن الفكر والوجود فى صميمها شيء واحد ، يجعلان بغير شك من ليبنتز فيلسوفاً أفلاطونياً (٥) . والواقع أنه كان يميل إلى هذا الوصف ولا ينكره . غير أن هناك من الأسباب ما يدعونا فى نفس الوقت إلى وصفه بالفيلسوف الأرسطى . صحيح أنه لم يكن ليرضى عن هذا الوصف الذى ربما أثار فى نفسه ذكرى الفلاسفة المدرسية الجافة التى شاعت فى أيامه ، وتجمدت فيها

---

(٥) يقرر هذا فى مقدمة كتابه « المقالات الجديدة عن العقل الإنسانى » الذى خصصه للرد على كتاب لوك المشهور ، فتجده يقول صراحة : « إن مذهبه ( أى مذهب لوك ) أقرب إلى أرسطو ومذهبه أقرب إلى أفلاطون ، وإن كان كلانا قد انطلق فى أمور كثيرة من مذهب هذين السكاتبين » . (ترجمة لاتان ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩)

أفكار أرسطو الحية في صيغ مميّزة . غير أن إحساس ليبنتز بقيمة الفرد يسوغ لنا إطلاق الصفة المهيبة عليه ، فهو يتفق مع أرسطو في أننا نلتقي بالوجود الحقيقي في الموجودات الممتدة أو في الجواهر المفردة . والتنوع العجيب الذي نشاهده مع تنوع الأفراد واختلافها وكثرتها يعد من أهم خصائص العالم وأجلها قيمة . وهو لا يوافق أرسطو على هذا كله فحسب ، بل يذهب إلى أن النظام الذي نراه في العالم لا ينبغي أن يزيد عما هو عليه حتى لا يؤثر على التنوع الحافل فيه . إن الفرد المتميز المتوحد يحتفظ بقيمته في ذاته . وقيمته في تفردته وأصالته التي تجعله موجوداً نسيج وحده ، لا ثانى له في الوجود كله . ومن الواضح أن ليبنتز يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أرسطو . فلم يكن في وسع مفكر يوناني أن يقدر فكرة التفرد كل التقدير ، لأن هذا يعتمد إلى حد كبير على النظرة المسيحية إلى الشخصية والتاريخ . ولهذا يمكننا أن نقول إن ليبنتز يواصل السير على طريق التراث الفلسفي المسيحي حين يعبر الفرد قيمة وحين ينظر إلى العقل بوصفه أعلى صورة من صورته . وهو في الواقع لا يكتفى بتكرار هذه الفكرة القديمة ، وإنما يعبر عنها تعبيراً جديداً يكشف بدوره عن أصالته . فهو يرى أن تفرد المونادة الفردية يمكن تفسيره من خلال علاقتها بالكل ، أعني من خلال المنظور الذي تطل منه كل مونادة على العالم وتمكسه على طريقتهما ومن وجهة نظرها . فإذا طبقنا هذا على الإنسان أمكن القول بأن تفردته يعتمد على تفرد الصورة التي يلقطها عن العالم وتمييزه عن غيره من الناس . إن وجود الفرد يعتمد على وجود الجموع . وقد رأى ليبنتز هذا رؤية مثالية واضحة . ولكن فلسفته لم تتجاوز هذه الرؤية الهندسية المتجانسة . ولم تؤثر عليها فكرة العلاقة الشخصية بين الأفراد ، ولا فكرة التأثير والتأثر المتبادل بينهم في الواقع .

والمجتمع . ولهذا ظلت الفردية والفرد عنده بعيدين عن كل ما تحملا أنه اليوم من المعانى الوجودية والطاقات الانفعالية والبواعث الاجتماعية والنفسية . ولهذا فقد يكون من الخير ألا تحمل فكرة الفرد عندنا أكثر مما تحمل ولا نستخرج منها نتائج لم يكن من الممكن أن ينتهى إليها . ومن يدري؟ فلعله كان يريد بها تأكيد فكرة « الواحدية » ، أى تأكيد القول أن كل موجود واحد ، وأنا مهما جردناه من كل صفاته فلن نستطيع أن نجرده من صفة أنه واحد إلى جانب أنه موجود . . . وهى الفكرة التى أكدها أفلاطون من قبله عن « الواحد » المختلف عن كل ما يصدر عنه . ثم أكدها هو من ناحية الصفات والخصائص التى ينفرد بها كل موجود عن كل ما عداه . ولا يجب بطبيعة الحال أن نفهم هذا من الناحية العددية فحسب ، إذ أن هذا بعيد كل البعد عن تفكيره . بل يجب أن نفهم منه أنه يؤكد أن الفرد ليس فردا من ناحية العدد فحسب ، وإنما هو فرد من ناحية الفاعلية والطاقة والطابع الشخصى الذى يتميز به عن كل فرد ( أو جوهر ) سواء . وهى فكرة أساسية فى مذهبه فى الوجود والدين والأخلاق جميعا ، إذ يفر هذا الطابع الشخصى والفردى ان يكون ثمة مجال للنواب والعقاب بعد الموت .

\* \* \*

هكذا حرص لينيئز على تأكيد فكرة الفرد والتنوع حرصه على تأكيد فكرة الوحدة والشمول . وهذا يكشف لنا عن سمة أخرى من أبرز سمات فكره ، وأعنى بها ميله الدائم إلى التوفيق بين الآراء المتعارضة والتأليف بين الاتجاهات المتباينة فى مركب واحد . تشهد على هذا محاولته التوفيق

بين النظرة الغائية والنظرة الميكانيكية للعالم ، أى بين أفلاطون وأرسطو من ناحية وبين ديكارت والعلماء الطبيعيين في عصره من ناحية أخرى .  
وقد لمسنا هذه المسألة من قبل ، ورأينا كيف قبل ليبنتز الفكرة الميكانيكية المحدودة وأصر في نفس الوقت على رفض الفكرة الميكانيكية المطلقة ! فهو يوافق على أن جميع العمليات الفيزيائية يمكن تفسيرها تفسيراً ميكانيكياً ، ولكنه يرى أيضاً أن من الممكن الإبقاء على التفسير الغائى الذى وصل إلينا عن الفلسفة القديمة ، بل إن هذا التفسير الأخير لاغنى عنه لى يقوم التفسير الأول على أساس وطيد .

فإذا أردنا بالغائية والميكانيكية أن يكونا تفسيرين متضادين متعارضين للواقع ، فإن فلسفة ليبنتز تخرج عنهما جميعاً ! وقد يكون من الصواب أن نصف تفكيره بأنه تفكير تركيبى أو تأليفى . ومهما قيل عن إخفاقه فى الوصول إلى هذا التأليف ، فإن ذلك لا يقلل من تأثير فلسفته ولا ينقص من أصالتها واتساقها .

\* \* \*

كان ليبنتز عالماً فى الرياضة ، وكان لهذا أثره على فلسفته . فالطابع الذى يسودها طابع رياضى ، والمثل الأعلى الذى تهتدى به مثل رياضى ، والأحكام والدقة اللذان يمسكان حلقاتها مستمدان من روح التفكير الرياضى . كتب فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٦٩٤ رسالة إلى الماركيز دى لوسيهال Marquis de l' Hospital يقول فيها هذه العبارة :  
« أن الميتافيزيقيا عندى رياضية خالصة » .

لقد كان يعتقد أن جميع العلوم التى تتناول حقائق العقل يمكن أن

تتطور على نسق العلوم الرياضية ، كما كان يتوقع للعلوم التى تنصب على حقائق الواقع أن تلجأ إلى المناهج الرياضية وتنفيد منها إلى أقصى حد ممكن ( وقد حتمت العلوم التجريبية نبؤته وقطعت معظم العلوم الإنسانية شوطا كبيرا فى هذا السبيل ) .

وجدير بالذكر أنه أثنى على أرسطو لأنه كان فى منطقته أول من كتب بأسلوب رياضى خارج حدود العلوم الرياضية ، كما تمنى أن يمتد هذا الأسلوب إلى سائر العلوم . بل إنه لمعبر عن اقتناعه بأن تطبيق المنهج الرياضى على العلوم الفلسفية سيضع حدا للخلافات فتختفى تماما من على مسرح الفلسفة ! ولا شك أن حماس ليبنتز للرياضة قد أدى به — كما أشرنا من قبل — إلى اغفال الحدود التى لا بد أن يقف عندها المنهج الرياضى ، كما أن طريقته الرياضية فى التفكير قد دفعته فى كثير من الأحيان إلى محاولة الإجابة على بعض المشكلات الفلسفية بنفس الدقة التى يلتزم بها الرياضيون ، مع أنها فى الغالب مشكلات لا حل لها على الإطلاق ؛ وإن وجد هذا الحل فلا يمكن التوصل إليه عن طريق المنهج الرياضى !

كان ليبنتز مقتنعا بأن جميع العلوم يمكن أن تطبق منهاهج الرياضة بدرجات متفاوتة . ولعل هذا الاقتناع أن يكون دليلا على النزعة العامة التى تطبع تفكيره كله ، ألا وهى نزعة التفاؤل التى سخر منها فولتير . ولا شك أنه كان متأثرا بالمناخ العام الذى ساد عصر التنوير الأوروبى ، وإن كان الانصاف يقتضينا القول بأنه لم يقع فريسة ضيق الأفق والجفاف والفقر الروحى والوجدانى الذى غلب على معظم إنتاج هذا العصر . ولكن ثقته المطلقة فى قوة العقل الإنسانى تدل على تفاؤله . إنه يؤمن بتقدم الفن

والفلسفة في الماضي والمستقبل على السواء . وقد ينعكس هذا التقدم المستمر من وقت لآخر . ولكن النظرة الشاملة تثبت أن العقل قد تقدم أكثر مما انعكس ، وأن المعرفة البشرية يزداد حظها من السكال على مر التاريخ . وتظهر النزعة المتفائلة أيضاً في نظراته إلى العالم والمصير . فهذا العالم هو أفضل عالم ممكن . والظلام الذي يخيم عليه ليس إلا الوجهه الشاحب للنور . والشر والبؤس والتماسة التي نلقاها فيه ليست شيئاً بجانب الخير والرحمة والعدل الذي أفاضه هناية الله علينا . إن أنين المأساة يضيع وسط أنغام التجانس الشامل .. والموت نفسه يفقد ثقله وجهاً متهمة ، ويصبح الشر هو الضريبة الضرورية التي لا بد من أدائها للحرية البشرية ، كما تصبح الحرية نفسها جزءاً من نظام العالم الراسخ .

لا شك أن التفاؤل العقلي منبع غني تغدق منه الأفكار الحية ، وتربة خصبة تنمو عليها المعرفة البشرية . ولكن الخطر كل الخطر في إضفاء ثوب المثالية على جسد الواقع ، والنظر إلى القبح والبؤس والشر بعين الجلال والرضى والبهجة والتسامح . ذلك شيء يعجز الإنسان الذي يصطدم كل لحظة بصخرة الواقع الدامية . وهو على التحقيق شيء لا يقدر عليه إلا كائن فوق الإنسان أو كائن غير إنسانى ! وهو في النهاية خطر لم ينجح لينتقز في تلافيه ، ومزاق لم ينتج من الوقوع فيه . ولا نزاع في أن تفكيره يكشف من بعض الوجوه عن أحادية النظرة أو لنقل عن شيء من ضيق الأفق . وثقته المطلقة في المنهج الرياضى وتفاؤله المسرف يشهدان على هذا . فنحن نعلم اليوم أن المنهج الرياضى له حدود لا يستطيم أن يتعداها ، وأن للواقع مستويات وأبعاداً لا يمكنه أن يصل إليها . كما تعلمنا الحياة أن الاسراف في التفاؤل ( م ه — المونادولوجيا )

قد يكون نوعا من الغفلة أو السذاجة وحسن النية . ومع ذلك فإن الانصاف يقتضينا في هذا المجال أن نقول أن النظرة الأحادية ليست بالطابع الغالب على تفكير لايبنتز . فالواقع أن تفكيره بعيد عن التطرف . وهو يسعى على الدوام إلى التوفيق بين الأضداد في مركب يؤلف بينها ويمتدئ في كل آرائه بالحكمة العربية : الحقيقة في القوسط (\*) . لأنه يقدر الجديد بغير أن يرفض القديم ، ويفتش عن الحقيقة بين الآراء المتعارضة ليقوم بدور حامية السلام بينها ! ولا يتحرج أحيانا من تدوين أفكار فلسفية شائعة لإيمانه بأن الحقيقة غالبا ما تكون بسيطة ومشتركة بين الناس ، على حين يبدو الزيف في معظم الأحيان في ثوب خداع وضوء خلاب . وهو لا يبتعد عن النظرة الأحادية في القضايا التي يدعو إليها فحسب ، بل يتجنبها أيضا في اختياره للموضوعات العلمية التي يتناولها بالبحث . ويكفى أن طموحه لم يقف عند حد ، وأن حبه للمعرفة قد تنقل بين موائد المعرفة من القانون ، والرياضة ، والفيزياء ، والجولوجيا إلى الموسيقى ، والفلسفة ، واللاهوت ، والتاريخ والسياسة دون أن يحيد عن النظرة الشاملة أو ينحرف إلى الظاهر والغرور .

ولهذا كان تفكيره تفكيراً شاملاً ، بأوسع وأعمق معاني هذه الكلمة . وما أصدق قول ديدرو ( في المجلد الخامس عشر من الانسيكلوبيديا ، طبعة أسيزا ، ص ٤٤٠ ) : « عندما ينظر الواحد منا في نفسه ويقارن مواهبه بمواهب لايبنتز يحس بميل قوى يغريه بأن يقذف بالكعب بعيداً ويبحث لنفسه عن ركن خفي من العالم يمكنه أن يموت فيه بسلام .. كان

عقل هذا الرجل عدوا للفوضى، وكانت أعقد المسائل تقسق وتنظم عندما تدخل فيه . لقد جمع صفتين عظيمتين ينذر أن تتفق إحداها مع الأخرى : روح الكشف وروح المنهج ، إلى جانب الدرس الدثوب المتنوع الذي أتاح له معرفة معمدة الأنواع والأشكال ، ولم يضعف هذه الصفة أو تلك . لقد كان فيلسوفاً ورياضياً ، بأعمق ما تحمله هاتان الكلمتان من معنى (\*) .

---

(\*) النص مأخوذ عن طبعة روبرت لاتا ، ص ١٧ .

( هـ ) الفلسفة الخالدة ( \* ) :

الفلسفة الخالدة تعبير عن فكرة تحققت في الفلسفة في العصر القديم والوسيط ، قبل أن يصك الاصطلاح في القرن السادس عشر على يد اوجستينوس ستويكوس Augustinus Stoucus . أحد رجال عصر النهضة في ايطاليا . وقد آمن ليبنتز ايمانا قويا بفكرة الفلسفة الخالدة « التي تخطى السنين » ، وتنطوى على عدد من الكشوف الفلسفية التي تلقيناها عن القدماء ولا زالت جديرة بأن نأملها ونحافظ عليها ونعني بتمثلها والافادة منها . وتدل الفكرة في رأيه على التقدم المتصل في مجال المعرفة الفلسفية . وإذا كان الفكر البشرى ينشكس في بعض مراحل تطوره ، فإن المعرفة الفلسفية لا تنفك تتطور وتزداد عمقا واتساعا ، ما بقيت الأجيال اللاحقة التي تبنى على الأسس التي أرستها الأجيال المتقدمة . ليست الحقيقة من صنع انسان واحد ، وما من انسان يمكنه أن يدعى لنفسه شرف البحث عنها أو الوصول إليها . ومن أنكر جهود غيره على مدى التاريخ فهو أعمى أو أحمق . لقد طالما اجتهد المفكرون في البحث عن الحقيقة ، واكتشفوا هذا الملمح أو ذاك من ملامح وجهها الغامض النبيل — وحتى الذين تنكبوا فلسفتهم طريق الحقيقة وضلت سواء السبيل قد شاركوا بصورة غير مباشرة في اعتداء غيرهم عليها . لقد آمن ليبنتز بأن الخير أقوى من الشر ، وان الحقيقة أعظم من الخطأ . وهذه العبارة المشهورة التي قالها في سنة ١٧١٤ تشهد على حكمته وحكمة عصره : « إن الحقيقة لأوسع انتشارا مما يظن بعض الناس » —

( \* ) النص مأخوذ عن طبعة روبرت لاتا ، ص ١٧ .

( \* ) Philosophia perennis .

وأولى بالباحث أن يقتفى آثار الحقيقة في نظرية ما من أن يتسرع بادانتها على أساس الأخطاء التي وجدها فيها . وما من شيء يمكن أن يعبر عن هذه النزعة الحكيمية المتواضعة ، كما تعبر عنه الفلسفة الخالدة » . فهمي تحدد موقف الانسان من فلسفات الغير ، وتحمته على أن يعلم منها قبل أن يحاول هدمها .

ويعصور ليمتدح هذا الاتجاه الذي آمن به بصدق وتواضع في عبارات تستحق أن نقرأها ونقف عندها (\*) : « ان مؤلفات الاعلام من رجال المصور القديمة والحديثة بغض النظر عن خصوصياتهم الجدلية الحساسة مع مخالفتهم في الرأي ، تنطوي في معظمها على كثير من الحق والخير ، مما يستحق أن يقتبس ويودع كنز المعرفة البشرية . ولو اهتم الناس بالذهوض بهذه المهمة بدلا من تهديد وقتهم في القماس المأخذ والعيوب ، لما ضحوا في هذه الحالة إلا بغرورهم وزهوهم ! وعلى الرغم من العديد من الكشوف الجديدة التي توصلت إليها ، وبلغت من النجاح مبلغا جعل أصدقائي ينصحونني بتكريس جهودى لمثل هذه البحوث ، فأنى من جانبي على الأقل أقدر آراء الغير واعرف كيف أقيم كل رأى بما يستحق ، وإن كنت أفعل هذا بدرجات متفاوتة ، وربما كان السبب في هذا أنى تعلمت من نشاطى المتعدد الجوانب ألا أحقر شيئا على الإطلاق » .

هذه عبارات تذكرنا بنصيحة بارمنيدز لسقراط - في محاوره بارمنيدز

---

(\*) يقول هذا في بحثه Specimen dynamicum ( ١٩٦٥ ) عن نص ترجمة Philip P. Wiener في كتاب Leibniz, selections نيويورك، سكريبنر Scribner ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

لأفلاطون — ألا يحققر الفيلسوف شيئاً ، ولو بلغ من ضآلة الشأن مبلغ  
الشعر والطين ! وهى تكشف عن طبيعة لينتز وشخصيته ونزعه العقلية  
والنفسية التى وجهت نشاطه الفلسفى والعلمى — كما تكشف عن تواضع  
أصيل ينهل الحكيم من نبعه على اختلاف الهلاد والمصور ، ويتملم مع كل  
قطرة منه حقائق الحكمة ؛ تفكير الانسان المحدود ، تقدير جهود الغير ،  
الايمان بسلطان الحقيقة الذى لا تنال منه قوى الزيف والكذب مهما كان  
عقارها وعدتها ! وليس من الضرورى أن نكون من الحكماء لنعرف  
هذا كله . يكفى أن ننظر فى تاريخ الفكر البشرى نظرة مقساحة واسعة  
الأنق اسكى نصحيح أفكارنا ونعرف أن الحقيقة تكمن فى البحث الدائب  
عنها والجهد المبذول للسير على طريقها ، إذ لم يأت لى ولن يتأتى له أن  
يملك الحقيقة الكاملة ! ومن لم يفعل هذا فسيظل أسير ذاته وسجين عصره ،  
وان يتسنى له الارتفاع بفكره فوق الضحالة والتعجيز وضيق الأفق .

وما أجمل ما يقوله الأديب الناقد والفيلسوف المربى العظيم ليسنج (١٧٢٩ —  
١٧٨١) الذى عبر عن عصر التنوير وتجاوزه فى وقت واحد ، ودافع  
عن روح التسامح والأخوة البشرية والصدق فى المسرح والفن والحياة أبلغ  
دفاع وأخلصه :

« ليست الحقيقة التى يملكها انسان أو يتصور أنه يملكها هى التى  
تجعل له قيمة ، بل الجهد الصادق الذى بذله فى التماسها والسعى وراءها .  
فليس تملك الحقيقة هو الذى يرمى طاقاته وقواه ، بل إن البحث عنها هو  
الذى يعمل على تفتحها ، وفيه وحده تكمن قدرته على الاستزادة من الكمال .  
إن التملك يجعل الانسان كسولاً ، ساكناً ، مغروراً .. ولو أن الله وضع

الحقيقة كلها في يمينه . وجعل الدافع الوحيد الذى يحرك الإنسان إلى طلبها في سره — ولو كان في نيته أن يضلنى ضلال أبديا — ومد نحوى يديه المضمومتين وهو يقول « اختر بينهما الركعت أمامه في خشوع وهتفت به وأنا أشير إلى سره : رب ! أعطني هذه ! فالحقيقة الخالصة ملكك أنت وحدك !

\* \* \*

إن الفلسفة الخالدة كلمة عظيمة وفكرة خصبة . ولكن ما من كلمة لم يسأ استعمالها ، ولا من فكرة لم يسأ فهمها . وما أكثر الذين يتصورون ان « الفلسفة الخالدة » معطف يدثر فكرا كسولا غير ملتزم ، أو نزعة محافظة تنفق إلى الجدة والقدرة على النقد والتمحيص . صحيح أن الفكرة التى تسكن وراء الفلسفة الخالدة لا تخلو من الأخطار والمزالق ، ولكن من الخطأ الظن بأن الايمان بها لا بد أن يكون علامة على ضعف التفكير وجوده ، أو التساهل مع الغير — من باب حسن النية ! — أو التثبت بأكتاف الماضى الغابر . وفلسفة ليبنتز نفسها خير دليل على خطأ هذا الظن . فلقد كافح طويلا في سبيل التعرف إلى الحقيقة الشاملة ولم يحفل من السير على الدروب الجديدة المحفوفة بالمخاطر . وجمع العقل الناقد إلى القدرة على تقبل آراء الغير واحترام جهودهم وكشفهم . ويكفى أن نشير للانتقادات العديدة التى وجهها إلى ديكارت ولوك وبابيل ، وان نشير أيضا إلى اهتمامه بأفكار عصره والبحوث التى تمت على عهده في مختلف الميادين ، حتى لقد وصل هذا الاهتمام في بعض الأحيان إلى حد الولم بكل جديد مبتكر ! ولا شك أنه كان يقف في جانب التقدم والتطور ، فضلا عن وقوفه في

صف المحافظين — بالمعنى السكريم الذى يدل عليه الأصل اللاتينى لهذه الكلمة - (\*) أى بمعنى الحفاظ على كل ما يستحق البقاء ويدفع تيار التطور إلى الأمام ، ويضيف لـكنز المعرفة البشرية حجراً واحداً ثمينا ! ومن الغلم أن نأخذ إيمانه بالفلسفة الخالدة مأخذ السكسل الروحى ، أو المعجز عن ارتياد جهاهل المستقبل ، أو قلة الاصاله والابتكار . ففلسفته كلها تشهد على شجاعته وتفتح عقله وعرفانه بما قدمته الفلسفة من قديم وجـديد . ولو أحسننا فهم فلسفته لـعلمنا منه دروسا تنفع المؤمنين بالفلسفة الخالدة والجاهدين لها على السواء !

### ثالثا - ليبنتز في مرآة الأجيال

ما الذى بقى حيا من فيلسوف غاب شبحه القانى منذ مائتين وسبعة وخمسين عاما ؟

سؤال عسير ، من تلك الأسئلة التى لا يجاب عليها إلا بأسئلة أخرى !  
يصدق هذا على ليبنتز ، كما يصدق على كل فيلسوف أو أديب عظيم ترك تراثه ودبعة بين يدي الأجيال . ومن يدري ؟ فقد توقف الإجابة علينا نحن ؛ على رغبتنا فى الحياة أو قدرتنا عليها ، على مدى ما نملك من شجاعة البحث عن كنوز الماضى والارتفاع إلى قممها والاعتراف من منابعها وبث الحياة فيها وفى أنفسنا . وكـم من مفكر أو أديب مات فى ذاكرة الأجيال وشيع موتا . ثم جاءت اللحظة التى أحست فيها بحاجة الملحة إليه ففزعت نحوه كما يفرع الابن الغائب إلى صدر أبيه ، وأزاحت التراب والأكفان عنه ، وأنقذت صورته من عناكب النسيان التى تمسش عليها فى المتاحف والخازن !

يمكننا أن نسأل عن أثر ليبنتز على التاريخ الأوروبى والثقافة الأوروبية من بعده ، فنعرف فضله الذى لا ينكر على العديد من الأكاديميات العلمية التى تأسست فى أواخر حياته أو بعد موته وكان له دور مباشر أو غير مباشر فى قيامها (\*) .

ويمكننا أن ننظر إلى العلوم العديدة التى ازدهرت فى عصرنا الحديث قنطين بصمات أصابعه عليها ، ونرى إلى أى حد أفادت من توجيهاته

---

(\*) تأسست بفضل جهوده أكاديميات العلوم فى برلين ( ١٧٠٠ ) وفيينا وبيترسبورج ( ١٧١١ ) .

ولمحاته ، فكان أحد الرواد القلائل الذين دلوها على الطريق الصحيح الذى تواصل السير فيه . ويمكن أن نذكر علوم الرياضة والفيزياء والبيولوجيا والجيولوجيا واللغة والتاريخ والاقتصاد والمنطق الرياضى وعلم النفس التحليلى وغيرها من العلوم التى تعترف اليوم بفضلها . ولكننا لن نغضى فى هذه الأسئلة التى تحتاج إلى بحوث متخصصة ليس هذا مجالها ، ولنرجع للخيط الذى لمسناه عن تأثير ليننتز على التراث الفلسفى الحديث .

لم يكن ليننتز من الفلاسفة الذين يجمعون حولهم المريدين والاتباع ، وينشئون مدرسة تقوى نشر أفكارهم ورعايتها بعد موتهم ، لقد ترك وراءه تراثا ضخما من البحوث والرسائل المخطوطة التى لم ينشر منها فى أثناء حياته سوى قدر ضئيل . ومات وحيدا منسيا مكروها من أغلب معاصريه ، وظل الكره والأهمال والجحود يلاحقه حتى عهد قريب . ولاشك أن كشوفه الهامة فى الرياضة والعلوم ، وصلاته القوية بعلماء عصره ومفكريه ، ومذهبه الذى أثار الأعجاب باتساقه بقدر ما أثار السخط على تفاؤله الشديد ، وشخصيته الموسوعية الفريدة التى جمعت المتناقضات فى مركب عجيب ، لا شك أن هذا كله لم يسمح بأن يقسرب إليه النسيان ، وأن سمح بمض الوقت بالجحود والنكران ! .

والهم أن أعماله نجت من القدر الذى لم يعرفق به فى حياته . وبدأت أجيال الباحثين فى نشر مخطوطاته العديدة المبعثرة بين المكتبات ، وفك طلاس مسوداته اللينة بالقصويبات والزيادات والمراجعات ! ولم تكدمر عشرون سنة على وفاته حتى ظهرت أول محاولة لدراسة فلسفته دراسة شاملة . فكتب لودوفيجى فى سنة ١٧٣٧ كتابا بعنوان : مشروع تفصيلى لتاريخ

كامل لفلسفة ليبنتز . (\*)

غير أن الفضل الأكبر في نشر فلسفة ليبنتز والترويج لها بين جموع المتقنين يرجع لسكرستمان فوف ( ١٦٧٩ — ١٧٥٤ ) زعيم حركة التنوير في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، وأمير النزعة العقلانية ، و« الممثل الجبار » للفلسفة الدجاطيقية أو القطعية كما قال عنه كانت بحق !

ولكن فوف وتلاميذه أساؤا إلى ليبنتز بقدر ما أحسنوا إليه ، فحشروا فكره الأصيل الحى في قالب مذهبى ضيق غلب عليه الطابع المدرسى ، وتحكمت فيه آفة العلفيق والتوفيق . وقد كان فوف أول من غامر بكتابة معظم مؤلفاته باللغة الألمانية ، وهى في أغلبها لاتخرج عن عرض فلسفة ليبنتز مع مزجها بعناصر أرسطية ورواقية ومدرسية . ولهذا يمكن القول أن ليبنتز — الذى كان يكتب أساسا بالفرنسية واللاتينية — كان له أثر غير مباشر على تكوين المصطلح الفلسفى في اللغة الألمانية التى لم يكتب بها كثيراً .

وقد كانت فلسفة التنوير — التى عبر فيها فوف وأتباعه عن إيمانهم المفرط بالعقل واهتدوا فيها قبل كل شىء بفلسفة ليبنتز — التربة التى نمت عليها فلسفة كانت ، واستمدت منها عصارة حياتها الأولى . والواقع أنه يتعذر علينا بنظر ليبنتز أن نتصور كانت وفلسفته . صحيح أنه تصدى في مرحلته النقدية للمهجوم على النزعة العقلانية القطعية ، وهدم صروحها الميتافيزيقية الشامخة . ولكن هذا لاينفى تأثيره الشديد في بداية نشاطه الفكرى بفلسفة ليبنتز التى قامت عليها تلك النزعة أو بالأحرى على صورة معدلة منها —

---

C. G. Ludovici ; Ausführlicher Entwurf einer vollständigen Historie der Lebenizschen Philosophie .

ولا يقف الأمر عند القائل المحتوم بين الخوصوم - فالمعتقد يعيش دائماً في ناقده ! — بل يقعداه إلى مسائل هامة تتصل بنقاط اللقاء والافتراق بينهما. والمعامل لفلسفة كانت النظرية والعملية لن يخطيء سماع اصداء عديدة من ليبنتز : القضايا التحليلية والقضايا التركيبية ، مملكة الطبيعة ومملكة الغايات ، حقائق الواقع التجريبية الحادثة وحقائق العقل الأبدية الضرورية ، الاهتداء بالمناهج الرياضية والعلمية لاحكام المناهج الفلسفية والميتافيزيقية.. الخ ، ويكفى أن كانت قد تأثر إلى ابغ حد بككتاب ليبنتز « مقالات جديدة عن العقل الانساني » الذي لم ينشر إلا في سنة ١٧٦٥ ، وذلك في كتابه الصغير الذي يحمل بذور نظريته في الاسقاطيقا الترنسندنتاليه أو الزمان والمكان ، ويعد ارهاصة حقيقية بتحويله إلى الفلسفة النقدية ، وعلامة بارزة على طريق تطوره العقلي<sup>(١)</sup> » ويقصد به رسالته اللاتينية الهامة : « صور ومبادئ العالمين الحسى والعقلي » ( ١٧٧٠ ) . فقد عبرت هذه الرسالة الصغيرة عن تخلصه النهائي من تأثير النزعة العقلانية القطعية — التي توصف عادة بفلسفة فولف وليبنتز — ومزاعمها الطموح المتعجلة عن قدرة العقل البشرى على معرفة الوجود كما هو في ذاته ، كما عبرت عن الارتباط الوثيق بين الحساسية وطبيعة الإنسان المتناهية المحدودة ، وكلها أشارات هامة إلى « التحول الكوبرنيكى » والثورة النقدية التي أعلنها في كتابه « نقد العقل الخالص » بعد ذلك بأحد عشر عاما .

لا ينبغي هذا كله بطبيعة الحال أن كانت وليبنتز مختلفان في تفكيرهما أعمق الاختلاف ، على الرغم من أوجه الاتصال بينهما . وكل ما نريد من ورائه هو تأكيد أن وصف ليبنتز بأنه ممهد — كانت وصف ينطوى على

(1) De mundi sensibilis atque intelligibilis forma et principis.

اجحاف شديد به . ويزيد من وقع هذا الاجحاف بليبنتز أن عدداً كبيراً من الباحثين قد دأبوا على وصفه بفيلاسوف عصر الباروك . وهم بهذا لا يسكادون يخفون رغبةهم في إظهار الجانب الضعيف من فلسفته ( وان كان ذلك الوصف لا يقلل من أهميته ولا يجعله مبتور الصلة بعصرنا ) ، ولا يسكتمون ميلهم إلى التهوين من شأن ميتافيزيقاه « غير النقدية » بالقياس إلى ميتافيزيقا كانت النقدية ، وأبرز أخطائها وبعدها عن الروح العلمية إذا قورنت بالفلسفات العلمية المعاصرة التي تسترشد بمناهج العلم الرياضى والطبيعى ونتائجه . ومن الواضح أن مثل هذا النقد لا ينصف « كانت » ولا « ليبنتز » ، ولا يسلم عند النظر المتأنى من الظلم والتعجيز .

أثر ليبنتز على عدد كبير من المفكرين والأدباء الذين تمتد قائمة أسمائهم إلى يومنا الراهن . ولن يتسع المجال للحديث عن هذا التأثير الخصب العميق ، وهذا نكتفى بتناول لمحات بارزة منه .

\* \* \*

كان الأديب الناقد العالم ، باعث حركة « العصف والدفع » الأدبية فى ألمانيا ومؤسس فلسفة التاريخ بها وهو يوهان جوتفريد ( ١٧٤٤ — ١٨٠٣ ) من أهم المفكرين الذين تأثروا بليبنتز . فقد اعتمد على فلسفته فى هجومه الرير على فلسفة كانت المتأخرة ( وحاول فيه دون نجاح يذكر أن يتجاوز نقد كانت بما بعد النقد ) وقدم كثيراً من أفكار فياسوفنا فى كتابه « رسائل لرعاية الإنسانية »<sup>(١)</sup> . وفى مجموعة مقالاته السمة Adrastea ، كما عرف أصحاب حركة العصف والدفع بكثير من خواطره ولمحاته التى

---

(1) J. G. Herder , Briefe zur Beförderung der Humanität  
( 1793 — 1797 )

أفاد منها جوته <sup>(١)</sup> وشيلر وأعلام الفلسفة المثالية الألمانية ، وفي مقدمتهم هيجل . ومن الصعب أن نحدد طبيعة العلاقة بين هيجل وليننتز ، فبينهما من أوجه الخلاف والاتفاق ما يجعل كفتي متعادلتين . ويكفى أن نذكر عبارة قصيرة لهيجل وضع بها أصبعه على الفارق بينهما حيث قال : « إن المفرد هو المبدأ الأساسى عند ليننتز » ، وطبيعى أن يصدر هذا القول من هيجل . فإن يكن هو نبى « الكلى العام » فإن ليننتز هو المبشر « بالفرد » والفرد ! .

لأتجه اليسار الميجلى إلى ليننتز وفسر أفكاره تفسيراً قد لا يرضى عنه الفيلسوف نفسه .. فقد نشر لودفيج فويرباخ ( ١٨٠٤ - ١٨٧٣ ) فى سنة ١٨٣٧ كتابه : عرض وتطور ونقد فلسفة ليننتز <sup>(٢)</sup> « وقد كان لهذا العرض الانثروبولوجى والمادى لفلسفة ليننتز أثره الكبير على المادة الجدلية . وجدير بالذكر أن هذا الكتاب كان من الكتب التى عكف لينين على دراستها واقتباس أجزاء منها أثناء الفترة التى قضاها منفياً فى سويسرا .

---

(١) سجل يوهانيس فالك فى أحد أحاديثه مع جوته ( فى ٢٥ يناير ١٨١٣ عشية وفاة الأديب فيلاند الذى كان يحبه ويقدره ) سجل لإيمان جوته بحلول الروح بعد الموت ، على أساس إيمانه بفكرة ليننتز عن المونادة التى هى فى النهاية نفس أو روح ، فكل ما فى الكون مونادات ، سواء فى ذلك النباتات والحيوانات والبشر والنجوم .. الخ . وهى تتحول بعد تحليلها عن المادة إلى كيان آخر ، ولا يبقى منها إلا ما يستحق البقاء والمونادات التى قضت حياتها فى تهذيب نفسها وتربيتها بالفن والمعرفة أحق من غيرها بالبقاء والخلود .

(2) Feuerbach, L. : Darstellung. Entwicklung und Kritik der Feibnizschen Philosophie ( 1837 ) .

وامتد هذا التأثير حتى بلغ ذروته في كتاب صدر حديثا لهانز هينس هولس، حاول فيه أن يفسر ليبنتز تفسيراً مادياً ملحداً<sup>(١)</sup>، وأن يثبت بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة أن فلسفته فلسفة مادية تتستر وراء المثالية، وأن إيمانه بالله ليس إلا الحادا مقنماً ! بل لقد أصبح ليبنتز في رأى المؤلف هو نموذج الملحد، كما أصبح حديثه عن الله مجرد رواسب من تدين شخصى غريب على مذهبه الحقيقي ! وإذا كان العارفون بليبنتز قد حنقوا أشد الحنق على هذا التفسير المتعسف، فإنه قد لفت الانظار على أية حال إلى مسألتين هامتين: أما المسألة الأولى فهي أن الحدود التي توضع عادة بين الواحدية الروحية والواحدية المادية ليست حدوداً واضحة ولا فاصلة بالقدر الكافي، أما الثانية فهي أن نظرية ليبنتز عن الله لاتزال في حاجة إلى مزيد من النقد والتمحيص والتفسير، ولعل الغاضبين على هذا التفسير أن يكونوا على حق في غضبهم، فمثل هذا التفسير لليبنتز أو غيره — وإن استحق الاعجاب بجرأته أو تهوره ! لا يقيم إلا على حساب المذهب نفسه، ولا يتناسب فيه الربح مع الخسارة. وإذا أردنا أن نحافظ على اتساقه فلا بد من التوضيحية بجوانب رئيسية من مذهب الفيلسوف على أساس أنها « غريبة عنه ». ومن يدري ؟ فقد يؤدي هذا بصورة ضمنية إلى إدانة الفيلسوف وإثبات نفاقه وتعدد وجوهه. وهو خطر لا يمكن المغامرة به في كل الأحوال .. فقد يرضى زهر المفسر صاحب الرأى الجديد العنيد، ولكنه سيضال الباحث المتواضع الذي يسعى إلى وضع المذهب في إطاره التاريخي الصحيح.

وربما كانت الفلسفة الألمانية في القرن التاسع عشر أكثر من ذلك

---

(1) Holz; Heinz Heing. Leibniz. Stuttgart, W.Kohlhammer, 1958, 164 pp. (Urban Bucher. 34).

إنصافاً لروح الفيلسوف وحروفه — فهمهم أولاً يوهان فريدرش هربارت (١٧٧٦ - ١٨٤١) وبرنهارد بولزانو (١٧٨١ - ١٨٤٨) وهرمان لوتزه (١٨١٧ - ١٨٨١) يتأثرون بليبنتز في مذاهبتهم الميتافيزيقية والمنطقية، ويفسرونه كما كان يجب لنفسه أن يفسر - أعنى كفيلسوف إلهي ومنطقي يبحث عن الحقائق الخالدة في عقل الله وعقل الإنسان خليفةته وصورته المصغرة على الأرض . ولم يسكت هؤلاء الفلاسفة الثلاثة بإنصاف ليبنتز ، بل بثوا الحياة في فلسفته ، وبخاصة نظريته في المونادات أو الكائنات البسيطة غير المادية ، أو عناصر الواقع المحملة بالطاقة التي بنى عليها هربارت ميتافيزيقاه . وقد كان لوتزه وبولزانو فضل كبير في نقل مذهب ليبنتز في صورته النقية إلى القرن العشرين .

بدأ الحوار الحي العميق مع أفكار ليبنتز مع بداية هذا القرن ، ففي سنة ١٩٠٠ نشر برتراند رسل كتابه العظيم « عرض نقدي لفلسفة ليبنتز <sup>(١)</sup> » الذيذهب فيه ، إلى أن الرياض والمنطق هما محور فلسفته ، وأن قضية « تضمن الموضوع المحمول » هي أساس مذهبه الميتافيزيقي عن الجواهر البسيطة أو المونادات . ونشر الفيلسوف الفرنسي لوى كوتيرا كتابه : « منطق ليبنتز » سنة ١٩٠١ وضمنه وثائق لم يسبق نشرها ، فلفت الأنظار إلى أن هذا المنطق « ليس قلب المذهب وروحه فحسب ، إنما هو كذلك محور نشاط ليبنتز العقلي . » ثم توالى البحوث التي تؤكد أبوة ليبنتز

---

(1) Bertrand Russell ; A critical exposition of the philosophy of Leibniz .

راجع تلخيصاً وعرضاً له في مقال لاستاذنا الدكتور عثمان أمين في مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٣٤ ، ديسمبر ١٩٦٧ ، تحت عنوان رسل وفلسفة ليبنتز ، ص ١٦

للمنطق الرياضى الحديث ، ومن أهمها بحوث هينريش شولس الذى بلغ به الحب والتقدير للفيلسوف أن سمي لغة الحساب المنطقى « لغة لايبنتز » . ولا شك أن فضل لايبنتز على المنطق الحديث لا ينسكرك ، فقد وجهه إلى الطريق الذى يسير فيه بما كتبه فيه ودها إليه من « تريض » المعارف المختلفة — بما فى ذلك الميتافيزيقا ١ — وإنشاء لغة تصورية حسابية تقضى على الخلافات والمجادلات الدائرة على مسرح الفلسفة والمعرفة جميعا ١ والواقع أن من الصعب تحديد أثره على ازدهار المنطق الرياضى الحديث بعد سنة ١٨٥٠ ، وإن كان أثره عليه قد اتضح بصورة قاطعة بعد بداية القرن ، بفضل بحوث رسل و كوتيرا التى أشرت إليها منذ قليل <sup>(١)</sup> . ولعل أهم ما فى هذا كله هو أن لايبنتز قد جعلنا أقدر على فهم العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والرياضة . وإذ لم يكن من الممكن ولا من العقل أن تغتلى الفلسفة عن شخصيتها وروحها ومنهجها لفرق فى الرياضة ، فإنها تستطیع مع ذلك أن تفيد من نقائج الرياضة والعلوم الطبيعية . وهذا هو الدرس الحى الذى أخذته معظم الفلسفات العلمية المعاصرة من لايبنتز . هذا إلى جانب درس آخر لا يقل عنه أهمية : وهو أن يتعلم الفلاسفة كيف يرتفعون فوق حدود التخصص الضيقة ، ويعودوا عيونهم وقلوبهم على النظرة السكلية المتعالية ، والحكم المترفع النزيه . وهذه النظرة السكلية التى لا ينفصل لها طرف عن مكان الفرد من المجموع . والجزء من السكل هى التى تستطیع أن تصحح أخطاء التخصص العلمى الضيق والضرورى فى آن واحد . بيد أن تأثير لايبنتز لم يقتصر على المنطق الحديث . ويبدو من

---

(١) راجع الفصل القيم عن منطق لايبنتز فى كتاب المنطق الرمزى نشأته وتطوره ، للدكتور محمود فهمى زيدان ، ص ٥١ — ٦٣ — بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ .

العسير أن نحصر أفضاله على مختلف جوانب المعرفة قبل أن نتزود بالقطرة الكلية المتكاملة لتفكير هذا الرجل الموسوعي العجيب . فحيثما تلفننا عثرنا على آثاره هنا أو هناك . قد يمكننا أن نتمين بصماته الواضحة على التحليلات اللغوية والمنطقية للوضعيين الجدد ، وكتابات علماء النفس التحليلي عن اللاشعور (ويكفي أن نذكر نظرية يونج عن اللاشعور الجمعي) و« فلسفة الحياة » من فرنسيين وألمان عن الطاقة الحيوية ، وفلاسفة العالم عن الطاقة والقوى الدينامية . ولعل تأثيره أن يكون قد اتضح بأجلى صورة على فلسفة وإيميد ( ١٨٦١ - ١٩٤٧ ) الذي بدأ من الرياضة والفيزياء ليصل بمقامته الفكرية الإنسانية العميقة إلى مذهب ميتافيزيقي اعتدى فيه بأفلاطون وأينشتاين على السواء !

وإذا كان السؤال عن تأثير ليبنتز على فروع المعرفة المختلفة سؤالاً لا يزال ملجأ ولا يزال في حاجة إلى دراسات مستفيضة ، فإن السؤال عما بقي حياً من فلسفته أو بالأحرى عما ينبغي أن يبقى منها مؤثراً فعالاً - هو سؤال أشد إلحاحاً : وقد أشرنا إلى رأيه في الفلسفة الخالدة ، ودعوته للرجوع إلى الرواد الأعلام من مفكري الماضي لتأخذهم الحقيقة السكامنة في كل فكر عظيم ، ونوسع من نظرتنا المحدودة بقصورنا وعجزنا البشري . ونحن اليوم في أشد الحاجة إلى تلبية هذا المطلب والانصات لهذا الصوت . فما أكثر الدروس التي يمكن أن نتعلمها منه . ولعل من أهمها أن تكون رغبةنا في التقى والتعلم أكبر من شهوتنا للهدم والتعطيل . وقد عبر ليبنتز بنفسه عن هذا المعنى الجميل الجليل في رسالة كتبها إلى ريمون Remond في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧١٤ وقال فيها : « ولو كان لدى الفراغ الكافي لعقدت مقارنة بين مذهبي ومذاهب القدماء وغيرهم من الرجال

القادرين . أن الحقيقة لأوسم إنتشاراً مما يظن الناس ، ولكنها كثيراً ما تكون مزينة مصبوغة الوجه ، وكثيراً ما تضعف وتفسد بفعل الشوائب التي تضر بها أو تقلل من نفعها . ولوتبيننا آثار الحقيقة عند المتقدمين لاستخلاصنا التبر من الوحل ، والملابس من المنجم ، والنور من الظلام ، ولكانت هذه في الواقع هي الفلسفة الخالدة .

هذه الكلمات هي خير ما نختم به حديثنا عن ليبنتز .

فهل ما تزال هذه الفلسفة الخالدة ممكنة ؟

إن الإجابة تحتاج إلى الحكمة والشجاعة . وليبنتز هو خير مثل على الحكمة والشجاعة .



المونادولوجيا

و

المبادئ العقلية للطبيعة والفضل الالهي



تقديم



كتب ليبنتز المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الالهي في سنة ١٧١٤ ، أى قبل وفاته بسنتين اثنتين. وتعد هاتان الرسالتان من أهم ما كتب وأعمقه دلالة على مذهبه الفلسفى وأكثره توفيقا فى صياغة والعبارة عنه .

والرسالتان مئةفتان فى الهدف والقصد ، ويحتمل أن يكونا قد كتبيا فى وقت واحد أو فى فترتين متقاربتين ، ويختلف الشراح فى ترتيبهما الزمنى ، وان كان المترجم والشارح الانجليزى القدير روبرت لاتا يؤكد أن المبادئ وضعت قبل المونادولوجيا <sup>(١)</sup> .

ولعل اندريه روبينييه <sup>(٢)</sup> الذى نشر أعمال ليبنتز وحققها وصدرت فى باريس سنة ١٩٥٤ أن يكون محقا فى قوله فى مقدمة هذه النشرة أنها أشبه شىء بالوصية <sup>(٣)</sup> ولعل أحد مؤرخى الفلسفة الأعلام — وهو كورت هيلد برانت <sup>(٤)</sup> — فى كتابه عن ليبنتز ومملكة النعمة أو الفضل الالهي ، أن يكون على حق كذلك فى إشارته إلى منزلة هذين السكتابين الصغيرين من مذهب ليبنتز العام . فهو يقول انهما يعبران عن أكل صيغة وصل إليهما ليبنتز فى ذروة نضجه الفكرى ، كما يتوجان هذا الفكر من ناحية

---

(1) The Monadology & other philosophical writings. Translated with introduction & notes by Robert Latta, Oxford University Press, 1. Edition 1898. Reprinted 1965. p. 216.

(2) A. Robinet.

(3) Presque un testament.

(4) Kurt Hildebrandt; Leibniz und das Reich der Gnade, Haag. 1953. S. 222.

المضمون ، ولذلك فهما مختلفان عن معظم أعماله التي تتناول مجالات أخرى وتعتبر عن وجهات نظر جزئية .

ولا يقتصر الأمر في شأن هذين الكتابين - أو ان شئت الـكتيبين ١- على زمن التأليف أو شكله ، وإنما يتجاوزه إلى ما بينهما من صلة عميقة من ناحية المحتوى والمضمون . فالفيلسوف يمرض فيها أفكاره الأساسية ، وإن كان قد توخى في المبادئ أن يخرج إلى الفاس بأسلوب أبسط ولفه أبسر ، لأنه لم يتوجه بها إلى زملائه الفلاسفة كما فعل في المونادولوجيا <sup>(١)</sup> ومع ذلك فإن من الخير دائماً أن تقرأ المبادئ مع المونادولوجيا أو بالأحرى قبلها . لئلا تكون تمهيداً لها أو تعليقا عليها . ومن الخير أيضاً ألا نقلل من قيمة هذه المبادئ التي يشير صاحبها في رسالته المذكورة إلى أهميتها ومكانتها من مذهبه كله .

ليست المونادولوجيا مجرد تمهيد لفلسفة ليبنتز ، وإنما هي عرض مركز لمبادئها الأساسية التي هير عفا في سائر بحوثه ، وبسطها بوجه خاص بصورة لا تخلو من الاضطراب والاستطراب في رسالته عن المعدل الإلهي (التيوديسيه) . ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الفيلسوف ، إذ نجده يشير بنفسه على هوامش مخطوطة المونادولوجيا لإشارات عديدة إلى فصول تلك الرسالة التي توسعت في شرح بعض المسائل التي تتناولها المخطوطة الصغيرة . وربما جاز لنا أن نقول مع مؤرخ الفلسفة المعروف يوحنا اردمان إن المونادولوجيا موسوعة صغيرة الحجم تضم كل فلسفة ليبنتز ، وليس من السهل بطبيعة الحال أن

---

(١) راجع الرسالة التي بعثها ليبنتز إلى نيكولا ريمون N. Remond في

تقيم هذه الموسوعة الصغيرة - غير الميسرة ١ - بعد أول قراءة . إذ لا غنى للقارئ عن الإمام بحوائب عامة من تفكير ليبنتز ، ولا غنى له أيضا عن النظر فيها مرة بعد مرة !

تتناول المونادولوجيا فلسفة ليبنتز في الجوهر . ويمكن القول بأنها تتألف من قسمين ، يشرح الفيلسوف في أولهما طبيعة الجواهر عامة ، ما خلق منها وما لم يخلق ، التي يتكون منها العالم في مجموعته ، ويفسر ثانيهما طبيعة العلاقات المتبادلة بينها على سبيل التأثير والتأثر ، بحيث تكون عالما واحداً بمفرده ، هو - في رأيه ١ - أصلح وأفضل عالم ممكن . ويمكن أن تدرج الفقرات من ١ إلى ٤٨ تحت القسم الأول ، أما القسم الثاني فيضم الفقرات الباقية ( من ٤٩ إلى ٩٠ ) ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقسم القسم الأول إلى ثلاثة أجزاء رئيسية يفسر ليبنتز في أولها ( من الفقرة ١٠ - ١٨ ) طبيعة المونادات المخلوقة ، ويميز في ثانيهما ( من ١٩ إلى ٣٠ ) الأنواع الثلاثة الكبرى من المونادات المخلوقة ، كما يشرح في الجزء الثالث ( ٣١ - ٤٨ ) كيف يتم الانتقال من أعلى أنواع المونادات المخلوقة ( وهي الوعى أو الفهم ) إلى المونادة الوحيدة التي لم تخلق ( وهي الله ) عن طريق المبدأين العقليين الأساسيين ، ونعنى بهما مبدأ عدم التناقض ومبدأ السبب الكافي . وبهذا يقدم لنا رؤيته لتكون بوجه عام ، ويكشف تدرج الكائنات الفردية التي يتألف منها طبقة فوق طبقة .

أما القسم الثاني فيمكن بدوره أن يتفرع إلى ثلاثة أجزاء ، تبين كما قدمت طبيعة العلاقات بين الجواهر بصورة أوفى وأتم . فالجزء الأول ( من ٤٩ إلى ٦٥ ) يعرض للمبادئ العامة التي تقوم عليها العلاقة بين الجواهر من خلال التجانس المتدبر أو الانساق المقدر ومذهب ليبنتز المشهور -

والمشبهه أيضا ١ - عن أفضل العوالم الممكنة ١ ويشرح الجزء الثانى ( من ٦١ إلى ٨٢ ) العلاقات القائمة بين أنواع معينة من الجواهر شرحاً مستفيضاً كما يعالج مسائل متعلقة بالكان الحى وطبيعة العلاقة بين النفس والجسم ، بما فى ذلك الحياة والموت والخلق والفناء . أما الجزء الثالث ( من ٨٣ إلى ٩٠ ) فيضم النسق الكامل للعلاقات فى وحدة واحدة هى الله ، ويتناول التفرقة بين العامل الفاعلة والعامل الغائية والتجانس بينهما فى نهاية المطاف - وهو التجانس الذى يقوم عليه التمييز بين النفس والجسم - ثم يضيف إليه تفرقة أخرى وتجانسا آخرين « المملكة الفيزيائية للطبيعة والمملكة الأخلاقية للفضل الالهى » ، أى بين الله بوصفه البناء الأعظم والمهندس المدبر للالة الكونية الهائلة ، وبين الله بوصفه الحاكم المهيمن على مدينة الأرواح ، والراعى الحكيم والأب الرحيم .

ولابد من القول بأن هذا التحليل — الذى اقتبسناه عن العالم الانجليزى لاتا - ليس إلا مدخلا مبسطا لقراءة هذا النص الرائع العسير . وهو لا يخلو بطبيعة الحال من التعسف والتسر ، ولا يغنى عن بذل الجهد والصبر ،

وقد وضع ليبنتز المؤنولوجيا تذكيراً لإقامته فى باريس ( التى قطعها لفترة امتدت من أوائل سنة ١٦٧٢ حتى أوائل ١٦٧٦ ) وأهداها فى المقام الأول لنيكولا ريمون وطائفة من العلماء والفلاسفة الفرنسيين نذكر من بينهم أرنو، ريمون، ومالبرانش، وهيجنز، وهوبه ، وفوشيه، وماربوت<sup>(١)</sup>

(١) الأسماء على الترتيب :

Foucher — Arnauld — Nicholas Remond — Moriotte —  
Malebranche — Huygens — Huet.

ولم يكن ليبنتز هو الذى وضع لها العنوان الذى تعريف به اليوم ، فقد وجدت المخطوطات التى تركها فى مكتبة هانوفر الملكية ، التى قضى فيها الجانب الأكبر من حياته ، بغير عنوان محدد ، وكانت تشتمل على مشروع الكتاب ونسختين معتمدين بخط يده ، فضلا عن نسخة رابعة موجودة بالمكتبة الأهلية بفيينا تحت عنوان « مبادئ الفلسفة للسيد ليبنتز » . والعنوان الحالى الذى اشتهرت به يرجع إلى عالم القانون الإلمانى هينريش كولر<sup>(١)</sup> الذى ترجم الكتاب للألمانية ونشره فى سنة ١٧٢٠ تحت عنوان مرهق طويل : « مبادئ السيد جوتفريد فيلهلم ليبنتز عن المونادولوجيا وكذلك من الله وجوده وصفاته والنفس الإنسانية ، إلى جانب دفاعه الأخير عن مذهبه فى الاتساق المدبر فى وجه اعتراضات السيد بايل<sup>(٢)</sup> » .

وقد شاع فترة طويلة من الزمن أن ليبنتز أهدى المونادولوجيا للأمير يوجين أمير سافوى ، وذلك منذ أن ترجمها ج ، كوتن<sup>(٣)</sup> إلى اللاتينية سنة ١٧٣٧ ( وقد ضمها يوحنا أدوارد أردمان إلى طبعته الكاملة لأعمال ليبنتز فى سنة ١٨٤٠ ) تحت عنوان « رسائل ميتافيزيقية مهداة لسمو الأمير يوجين<sup>(٤)</sup> » .

ومن طريف ما يحكى فى هذا الصدد أن الأمير سمع عن كتاب ليبنتز عن العدل الإلهى ( التيوديسيه الذى ظهر سنة ١٧١٠ ، ولعله قد سمع عنه

---

(1) Heinrich Köhler .

(2) Bayle .

(3) J. Koethen .

(4) Theses metaphysicae in gratiam serenissimi principis Eugenii .

من فم صوفي شارلوتة ملكة روسيا وراعية ليبنتز وصديقه . ويبدو أن الأمير اطلع على « الشيوديسيه » ورجا الفيلسوف أن يقدم له موجزا مبسطا لمذهبه الفلسفى . ويبدو أيضا أن النشوة أخذته بهذا السكتيب حتى لقد احتفظ به كالجوهرة فى صندوق مقفل ، مما جعل صديقه الدوق دى بونيفال<sup>(١)</sup> يكتب لليبنتز مداعبا : « أن الأمير يحتفظ بكتابتك كما يحتفظ الرهبان فى مدينة نابولى بدم القديس يانواربوس . إنه يسمح لى بقتيله ثم يسارع بإغلاق الصندوق عليه ! » .

ولكن لم تلبث الأيام أن كشفت عن خطأ هذا الرأى . إذ بين جرهارت<sup>(٢)</sup> سنة ١٨٨٥ فى الجزء السادس من طبعته الكاملة لأعمال ليبنتز أن ليبنتز لم يهد الأمير غير كتابه عن المبادئ ، بعد أن طلب منه هذا الأخير أن يقدم له تعريفا مبسطا لمذهبه . تؤيد هذا الرسائل التى تبادلها ليبنتز مع نيقولا ريمون والدوق النمساوى الكسندر دى بونيفال الذى كان صديقا حميا للأمير يوجين وتوسط فى تقديم ليبنتز له أثناء إقامته فى فيينا من خريف سنة ١٧١٢ . إلى خريف سنة ١٧١٤ .

وقد ظهرت المبادئ مطبوعة لأول مرة فى شهر نوفمبر سنة ١٧٢٨ فى مجلة العلماء التى كانت تصدر فى باريس بعنوان « أوروبا العالمية » وذلك اعتمادا على المخطوطات الأربع المحفوظة فى مكتبة هانوفر وعلى نسختين منها فى المكتبة الأهلية بباريس والمكتبة الأهلية بفيينا .

وتشترك المبادئ مع المونادولوجيا فى قضايا كثيرة ، وتوشك بعض فقراتها أن تكون اصدااء لأصواتها أو تنويعات على ألحانها الأساسية . وهى

---

(1) Claude Alexandre de Bonneval.

(2) G. J. Gerhardt.

لهذا بمثابة مدخل إليها أو دراسة تمهيدية لها . مما يرجح رأى الشراح عن تأليفهما في وقت واحد أو على الأقل في فترتين زمنيتين متقاربتين .

وتكشف النظرة العابرة إلى النص عن شيء غير قليل من الغموض والتفكك في ترتيب المادة . ولكننا لو تعمقنا التقسيم الأصلي الذى وضعه ليبنتز بنفسه لوجدنا أن النص يعحدث ابتداء من الفقرة الأولى حتى السادسة عن المونادات المخلوقة في ذاتها وفي علاقاتها ببعضها البعض ، بينما تتناول سائر الفقرات طبيعة الله بوصفه السبب الأول والأخير للسكون ، والنتائج المترتبة على قدرته وحكمته وكأله وخبريقه . ويلاحظ القارئ المتأنى أن المبادئ تمر مروراً عابراً ببعض المسائل الرئيسية التى تعالجها المونادولوجيا أو تلمسها في خفة وسرعة . فهى على سبيل المثال لا تذكر شيئاً عن المبادئ المنطقيين اللذين تقوم عليهما المعرفة البشرية . ولا توقف وقفة كافية عند فكرة التجانس المدبر أو الاتساق المقدر .

ولكن هذا كله لا يقل من شأن المبادئ ولا يوهن من صلتها الوثيقة بالمونادولوجيا ، سواء في طريقة تناول أو التعبير .

وتعتمد هذه الطبعة العربية لسكتانى ليبنتز على طبعة روينيه النقدية التى حققها على المخطوطات المحفوظة في مكتبات هانوفر وفيينا وباريس وقارن بينهما وزودها برسائل لم يسبق نشرها وصدرت في باريس المطابع الجامعية الفرنسية سنة ١٩٥٤ . وهى طبعة تمتاز على طبعة جرهارت الذى لم يلزم إلا بمخطوطات هانوفر دون الرجوع لنسخها المحفوظة في فيينا وباريس . وقد أضفنا إليها الملاحظات التى دونها ليبنتز بنفسه على المخطوطة الأصلية في مكتبة هانوفر وأشار فيها إلى المواضع المقابلة للنصوص في كتابه عن العدل الإلهي . كما أؤدنا كذلك من الترجمة الألمانية التى قام بها

أرتود بوخيناو<sup>(١)</sup> وراجعها وقدم لها الفيلسوف أرنست كاسير<sup>(٢)</sup> وظهرت سنة ١٩٠٩ في المجلد رقم ١٠٨ من سلسلة « المكتبة الفلسفية » ثم نشر النص الأصلي وترجمته الألمانية ونقحه وقدم له وعاق عليه الأستاذ هربرت هيرنج وظهر في المجلد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٩ من نفس السلسلة التي يصدرها الناشر فلي-كس مينر في مدينة هامبورج<sup>(٣)</sup> : واهتدينا أخيراً في كتابة التمهيد لهذا الكتاب بالكتاب القيم الذي وضعه الاستاذ يواخيم فانيوش عن حياة لايبنز وفلسفته وأثره على الحضارة العالمية ، وأصدرته هيئة « انفرناسيونيس » في سنة ١٩٦٦ بمناسبة الاحتفال بمرور مائتين وخمسين سنة على وفاة لايبنز . وديني نحو هذا الكتاب أكبر من أن يفهمه شكر أو عرفان .

أما كتاب « روبرت لاتا » الذي أشرت إليه في بداية هذا التقديم<sup>(٥)</sup> ، فقد استفدت منه فائدة لا تقدر ، واعتمدت على ترجمته الرائعة وتعليقاته القيمة على الوندولوجيا والمبادئ . وقد استمد « لاتا » أغلب هذه التعليقات المستفيضة من كتابات لايبنز نفسه ، كما أشار في مواضع كثيرة إلى نصوص

---

(1) Artur Buchenau.

(2) Ernst Cassirer

(3) Cr. W. Leibniz: Principes de la Nature et de la Grace fondés en Raison. Monadologie. Hamburg, Verlag Felix Meiner 1946. Band 253 der Philosophischen Bibliothek (Französisch Deutsch) S.XIV, 73, Hrag. von H. Herring.

(4) Joachim Vannebusch; G. W. Leibniz. Philosopher and politician in the service of a Universal Culture. Bad Godesberg, Inter — Nationes, 1966, P. 55.

(٥) أود أن أقدم شكري القلبي إلى الصديق الكريم الاستاذ أحمد الحكيم الذي أعارني هذا الكتاب القيم ...

المعاصرين أو السابقين ، ومراسلاته مع علماء عصره . ويرجم الفضل في  
الهوامش التي تجدها بين يديك وفي عديد من الأفكار والاشارات التي  
تضمنتها المقدمة إلى الطبعة الثالثة التي عنى بها هذا العالم الانجليزى القدير،  
أما مواضع الخطأ والقصور أو التقصير فأنا وحيدى المسئول عنها .  
هذا وأرجو من ترجمة هذين العاملين والمقدمة التي كتبت لهما  
والملاحظات والتعليقات والإشارات المختلفة التي وردت فيهما أن تعين القارئ  
العربى على دخول عالم هذا الفيلسوف ، وتشجعه على المزيد من الاطلاع  
على تراثه والاحاطة بجوانب مذهبه والتعاطف مع شخصيته وفكره، وتقدير  
أثره على تطور الفكر والحضارة الانسانية .



المبادئ العقلية للطبيعة والفضل الالهي



## المبادئ العقلية للطبيعة والفضل الالهي :

١ — الجوهر كائن قادر على الفعل. وهو بسيط أو مركب فالجوهر البسيط هو الذي لأجزاء له ، والجوهر المركب <sup>(١)</sup> هو المجموع المؤلف من من جواهر بسيطة أو موندات . ومونداس كلمة يونانية تدل على الوحدة أو على ما هو واحد . الأشياء المركبة أو الأجسام كثيرة <sup>(٢)</sup> . والجواهر البسيطة ، والحيوانات ، والنفوس ، والعقول ( الأرواح ) <sup>(٣)</sup> وحدات . ولا بد أن تكون هناك جواهر بسيطة في كل مكان ، إذ لولا البسيطة ما وجدت المركبة . يترتب على هذا أن تكون الطبيعة كلها ممثلة بالحياة <sup>(٤)</sup> .

٢ — لما كانت الموندات بلا أجزاء . فلا يمكنها أن تتولد أو تفسد <sup>(٥)</sup> ؛ ولا يمكنها أن تبدأ أو تنتهي على نحو طبيعي ، ولهذا فهي

---

(١) انظر الموندولوجيا ، الفقرة . د ٣ ، والتعليق عليها .

(٢) في الأصل بصيغة الجمع multitudes

(٣) في الأصل Esprits ويترجمها المترجم الانجليزي بالارواح Spirits لا بالعقول minds كما يفعل في أغلب الحالات .

(٤) انظر الموندولوجيا ، الفقرة ( ١ . ٢ ) والقول بانقسام المادة إلى مالا نهاية كالقول بوجود الجواهر المركبة في كل مكان ، لأن الذي يقبل القسمة لا بد أن يكون مركبا . فإسكن الجواهر المركبة مكونة من جواهر بسيطة . ولهذا توجد الجواهر البسيطة أو البكائنات الحية في كل مكان .

(٥) أولا يمكنها أن تتكون أو تنفني .

تبقى ما بقى العالم الذى يقبل التغير ولكن لا يقبل الفناء<sup>(١)</sup> . وليس من المستطاع أن تكون لها أشكال ، وإلا كانت لها أجزاء<sup>(٢)</sup> . يقرتب على هذا أن المونادة ، بما هى كذلك وفى لحظة بعينها ، لا يمكن تمييزها عن مونادة أخرى إلا عن طريق خصائصها<sup>(٣)</sup> وأفعالها الباطنة<sup>(٤)</sup> التى لا تخرج عن أن تكون هى ادراكاتها ( أى تمثلات المركب أو ما يوجد خارجها فى البسيط<sup>(٥)</sup> ، ونزوعاتها ( أى إتجاهها للانتقال من إدراك إلى آخر ) التى هى مبادئ التغير . لأن بساطة الجوهر لا تحول البنية دون كثرة

---

(١) حرفيا : الذى سيتغير ولكن لا يدمر ، وقد تابعت المترجم الألمانى فى هذا التصرف .

(٢) إذ لو كان للمونادة شكل لكانت ممتدة أو مكانية ، ولما كان الممتد يقبل القسمة ، فلن تكون المونادة بسيطة بل مركبة ، أى ذات أجزاء .

(٣) أو كميّاتها وصفاتها .

(٤) ومعنى هذا أننا نستطيع أن ندرك المونادة عن طريق الحواس . فالحواس لا تقدم لنا الجوهر نفسه ، بل مجرد ظاهرة مدعمة ، . ويوضح ليبنتز هذه النقطة فى رسالته إلى بير ليجيوم ( ٧١١ ) بقوله : « أن الأرواح والنفوس والجواهر البسيطة أو المونادات بوجه عام لا يمكن أن تعرف عن طريق الحواس والخيال ، لأنها لا تحتوى على أجزاء .

(٥) المركب ، بما هو مركب ، يتألف من أجزاء إلى أجزاء ، أو أجزاء فوق أجزاء ، ولكن وجوده وجود ظاهرى .

الأحوال المختلفة التي يجب أن توجد مجتمعة في هذا الجوهر البسيط نفسه كما يجب أن تتألف من علاقاته المتنوعة مع الأشياء الخارجية . وهذا شبيهه بمركز أو نقطة يوجد بها — على الرغم من بساطتها التامة — عدد لا حصر له من الزوايا التي تتسكون من الخطوط التي تتلاقى فيها <sup>(١)</sup> .

٣ — كل ما في الطبيعة ملاء <sup>(٢)</sup> . هناك جواهر بسيطة في كل مكان ، تختلف عن بعضها البعض اختلافاً فرعياً عن طريق أفعال خاصة بها <sup>(٣)</sup> تقوم باستمرار بتغيير علاقاتها . وكل جوهر بسيط أو مونادة متميزة تسكون مركز جوهر مركب (كالحيوان مثلاً) ومبدأ تفرد <sup>(٤)</sup> محاطة بكتلة مؤلفه من عدد لا نهاية له من المونادات الأخرى . هذه المونادات تسكون الجسم الخاص بهذه المونادة المركزية التي تتمثل طبقاً للانفعالات التي تعتريه <sup>(٥)</sup> — وكأنما هي أشبه بالمرکز — الأشياء الموجودة خارجها . وهذا الجسم عضوى ، وإن كان يؤلف نوعاً من الجهاز الآلى الذاتى الحركة <sup>(٦)</sup> أو الآلة الطبيعية التي لا تعتبر آلة من حيث هي كل فحسب ، بل كذلك في أصغر أجزائها

---

(١) انظر المونادولوجيا ، الفقرات من ٣ إلى ١٥ .

(٢) أو الطبيعة كلها ملا Plenum Pleins

(٣) أى أن كل مونادة تتميز عن سواها بما فيها من فاعلية تلقائية تنزرد بها عن كل ماعداها . وهذا هو الذى يجعلها وحدة حقيقية مستقلة .

(٤) Unicité وقد فضلتها على الواحدية حتى لا تختلط بالمذاهب الفلسفية التي تطلق عليها هذه الصفة لتفسيرها العالم ابتداء من فكرة أو مبدأ واحد .

(٥) لا يعنى هذا بالطبع أن المونادات التي تسكون الجسم تتأثر متأثراً فرعياً أو واقعياً بالأشياء الخارجية . إن ليمتاز يالجا هنا إلى التعبير بلغة شعبية مبسطة .

(٦) أو الاوتومات .

التي يمكن ملاحظتها<sup>(١)</sup> . ولما كانت كل الأشياء مرتبطة ببعضها البعض نتيجة لامتلاء العالم ، وكان كل جسم يؤثر على كل جسم آخر تأثيراً يقل أو يكثر حسب مسافة البعد بينهما ، كما يتأثر تبعاً لذلك برد فعله ، فيترتب على ذلك أن تكون كل مواندة مرآة حية قادرة على الفعل الباطن ، تمثل العالم من وجهة نظرها ، كما تخضع لنفس النظام الذي يخضع له<sup>(٢)</sup> والادراكات ( التي تتم في داخل ) المواندة تنشأ عن بعضها البعض طبقاً لقوانين النزوع أو العلة الغائية المتعلقة بالخير والشر التي تتكون من الادراكات الملحوظة منظمة كانت أو غير منظمة — كما تنشأ التغيرات التي تلحق الاجسام والظواهر الخارجية وفقاً لقوانين العلة الفاعلة أي لقوانين الحركة<sup>(٣)</sup> . وهكذا يوجد اتساق كامل بين إدراكات المواندة وحركات الأجسام ، وهو اتساق سبق تقديره منذ البدء بين نظام العلة الفاعلة ونظام العلة الغائية ، وفي هذا يمكن التطابق والاتحاد الطبيعي بين النفس والجسم ، بغير أن يقدر أحدهما على تغيير قوانين الآخر<sup>(٤)</sup> .

---

(١) أنظر الفقرة (٦٤) من المونادولوجيا .

(٢) أو تشبهه في نظام تكوينها .

هل كان ليبتنز ينبأ بحدسه الصائب بما ذهب إليه بعض العلماء الطبيعيين في عصرنا ( نيلس بور ) من أن بناء الذرة نموذج مصغر لبناء الكون ، على بعد الفرق بين الذرة والمواندة ١٩ .

(٣) ليست الحركات والرغبات سوى درجات مختلفة من النزوع *Appetition* أي الانتقال من إدراك واع أو غير واع إلى إدراك آخر . والنزوع غير الواعي حركة أو علة فاعلة لا تنتج لغاية ، أما النزوع الواعي أو الرغبة فتضع لنفسها غاية تتعلق بالخير أو الشر ، أي علة غائية .

(٤) أنظر المونادولوجيا ، الفقرة ٧٨ وما بعدها .

٤ — تؤلف كل موناذة ذات جسم خاص بها جوهرًا حيًا . ولهذا لا توجد فحسب حياة في كل مكان ، متصلة <sup>(١)</sup> بأعضاء أو أدوات ، بل إن هناك درجات لا نهاية لها بين المونادات ، إذ أن بعضها يحكم قليلا أو كثيراً في بعضها الآخر . فإذا توافرت للمونادة أعضاء جعلت <sup>(٢)</sup> بحيث تحوى الانطباعات التي تسبقها ، كما تحوى تبعا لذلك الإدراكات التي تمثلها ( أى تمثل هذه الانطباعات ) على فروق بارزة ومتميزة ( على نحو ما نجد ذلك عندما نلاحظ أن شكل السوائل في العينين يساعد أشعة الضوء على التركيز وقوة التأثير ) ، فإن هذا يمكن أن يؤدي إلى الإحساس <sup>(٣)</sup> ، أى إلى إدراك مصحوب بالتذكر ، يتبقى منه صدى معين لفترة طويلة ، حتى تأتي المناسبة التي تتيح له أن يسمع . مثل هذا الكائن الحي يسمى «حيوانا» كما تسمى مونادته نفسا . وعندما ترتفع هذه النفس إلى مستوى العقل ، تصبح شيئا أكثر سموا وتعد روحا بين الأرواح <sup>(٤)</sup> ، كما سأبين ذلك بعد قليل .

---

(١) مرتبطة أو مصحوبة بأعضاء ... الخ .

(٢) أو هيئت ورتبت بحيث ... الخ .

(٣) راجع المونادولوجيا ، الفقرة ( ٢٥ ) — لم يوضح ليمبتر كيفية الانتقال من الإدراك غير الواعي إلى الإدراك الواعي ، وكل ما يحرص على تأكيده في هذا الصدد هو أن إدراكات المونادات الواعية أقل غموضا وتشوشا واختلاطا من إدراكات المونادات غير الواعية ، كما أن أعضاءها مختلفة في تكوينها وترتيبها عن أعضاء المونادات الأخيرة . ويجب ألا ننسى أن تأثير المونادات على بعضها البعض تأثير مثالي خالص ، وأنه ليس في العالم شيء غير المونادات .

(٤) الأرواح هنا تقابل esprits ، وهذا من المواضيع القليلة التي يميز فيها ليمبتر الروح عن العقل .

بيد أن الحيوانات توجد أحياناً في حالة الكائنات الحية البسيطة ، كما توجد نفوسها في حالة المونادات البسيطة<sup>(١)</sup>، ويتفق لها هذا حين لا تبلغ إدراكاتها درجة من التمييز<sup>(٢)</sup> تكفى لتذكرها ، كما يحدث في نوم عميق خال من الأحلام أو في حالة الانغماء . ولكن أمثال هذه الإدراكات التي بلغت الغاية من الاختلاط لابد أن تتضح ثنائية في الحيوانات<sup>(٣)</sup> ، وذلك للأسباب التي سأعرضها بمد قليل ( في الفقرة ١٢ ) . ولهذا فإن من الخير التمييز بين الإدراك<sup>(٤)</sup> ، أو الحالة الداخلية للمونادة التي تتمثل بها الأشياء الخارجية ، وبين الوعي ، وهو الشعور الذاتي أو المتألمة<sup>(٥)</sup> لهذه الحالة الداخلية ، وهو ما لا يقاوم لجميع النفوس ، ولا لنفس واحدة في كل الأوقات ، وقد كان إغفال هذه التفرقة هو الخطأ الذي وقع فيه الديكارتون الذين تجاهلوا وجود الإدراكات التي لا تكون مصحوبة بالشعور<sup>(٦)</sup> ، على نحو ما يفعل

---

(١) أى في حالة الكائنات الحية والمونادات غير الواعية .

(٢) ne sont pas assez distinguées ( ص ٤١٠ )  
عندما لا تبلغ درجة كافية من الشدة أو الحدة . not sufficiently sharp .  
ولكنى لم أجد داعية لهذه الترجمة التفسيرية .

(٣) أى أن الإدراكات التي بلغت حالة من الغموض التام لابد أن ترجع إلى حالة الوضوح والوعي . ويشبه الغموض أن يكون نوعاً من الانقباض أو الانكماش أما الوضوح فهو أقرب إلى الانبساط والتمدد والانفتاح ..

(٤) يلاحظ أن الإدراك يقابل الـ Perception ، أما الوعي فيقابل الـ Apperception والشعور الذاتي conscience ، وقد فضلت الوعي على المهم أو ما أشبهه ( راجع التمهيد العام للكتاب ) .

(٥) أى المعرفة التي تنعكس على نفسها وتتأمل ذاتها .

(٦) راجع المونادولوجيا ، الفقرة ( ١٤ ) .

عامّة الناس عندما يسقطون من حسابهم الأجسام التي لا يدركونها إدراكاً حسيّاً . وهذا هو الذي حمل الديكارتيين أيضاً على الاعتقاد بأن العقول وحدها مونات ، وأن النفوس الحيوانية ، ناهيك عن المبادئ الأخرى للحياة لا وجود لها على الإطلاق<sup>(١)</sup> . وكما صدموا الرأي العام صدمة شديدة بنقيضهم الإحساس عن الحيوانات ، فقد تعاطفوا<sup>(٢)</sup> على العكس من ذلك مع الأحكام المسبقة التي يرددونها العامة تعاطفاً شديداً عندما خلطوا بين الاغماء الطويل الذي يأتي من اضطراب الإدراكات واختلاطها ، وبين الموت بمعناه الدقيق<sup>(٣)</sup> الذي يتوقف معه كل إدراك .

ولهذا أيدوا الرأي الهاوي<sup>(٤)</sup> الذي ذهب به أصحابه إلى فناء<sup>(٥)</sup> بعض النفوس ، كما دعموا الزعم الفاسد الذي قال به بعض ذوي العقول من الأدعياء<sup>(٦)</sup> الذين حاربوا خلود نفوسنا البشرية<sup>(٧)</sup> .

---

(١) أو بعبارة أخرى هو الذي حمل الديكارتيين أنفسهم على الاعتقاد بأن العقول هي المونات الوحيدة ، وأن الحيوانات الدنيا لا نفوس لها ، ناهيك عن مبادئ الحياة الأخرى التي اعتقدوا ألا وجود لها على الإطلاق .

(٢) أو وافقوهم عليها وأيدوهم فيها .

(٣) أو بمعناه المطلق .

(٤) أو الرأي الذي لا يستند إلى أساس .

(٥) حرفياً : دمار بعض النفوس .

(٦) يقصد أدعياء حرية الفكر .

(٧) راجع المونادولوجيا ، الفقرات ١٣ و ١٤ و ١٩ — ٣٠ و ٦٣ و ٧٠

و ٧٧ و ٨٢ ، وقد كتب ليبنتز إلى بيرلنج رسالة باللاتينية في ١٧١٧/٨/١٢ أوضح فيها درجات المونادة وترتيبها وقال فيها إن المونادة أو الجوهر البسيط تملك بوجه عام القدرة على الإدراك والنزوع ، وهي إمامونادة أولية أوأله ، =

٥ — توجد بين إدراكات الحيوانات علاقة ارتباط تشبيه من بعض الوجوه الاستنتاج العقل ( أو العقل ) ، ولكن هذه العلاقة لا تقوم إلا على تذكر الوقائع أو النتائج ، لا على المعرفة بالعلل ( أو الاسباب ) . ولهذا يهرب الكلب من العصا التي ضرب بها ، لأن الذئبة تصور له الألم الذي سببته له هذه العصا . وبقدر ما يتصرف الناس تصرفاً تجريبياً ، أى في ثلاثة أرباع أفعالهم ، فهم لا يقصرون إلا كما تقتصر الحيوانات <sup>(١)</sup> ولهذا نتوقع مثلاً أن يطلم النهار في الغد ، لأن الناس قد جربت ذلك دائماً : أما الفلاسكى فإنه يقتضياً به على أسس عقلية . غير أن هذا التنبؤ نفسه سيخيب في نهاية الأمر ، عندما تبطل <sup>(٢)</sup> عملة النهار التي ليست خالدة على الإطلاق .

ولكن الاستنتاج العقل الصحيح يعتمد على الحقائق الضرورية أو الأبدية ( الخالدة ) ، مثل حقائق المنطق والحساب والهندسة التي تؤلف بين الأفكار برابط لا يقطر إلى الشك ، كما تؤدي إلى نتائج لازمة لا تخلف . والكائنات الحية التي لا تلاحظ لديها هذه النتائج تسمى حيوانات ، أما الكائنات الحية التي تعرف هذه الحقائق الضرورية فهي التي تستحق أن تسمى حيوانات عاقلة ، كما تسمى نفوسها عقولاً . هذه النفوس قادرة على

---

= حيث يوجد السبب الأسمى للأشياء ، أو موناذة مشتقة من هذا أى موناذة مخلوقة . وهذه إما أن تكون مزودة بالعقل ، بوصفها شعوراً أو وعياً ، أو مزودة بأعضاء حسية فقط بوصفها نفساً ، أو لا تكون مزودة إلا بدرجة دنيا من الإدراك والنزوع ، بحيث تكون نوعاً من النفوس التي تقنع باسم الموناذة المجردة لأننا لا نعلم شيئاً عن درجاتها أو مستوياتها المختلفة .

(١) يضيف د لاتا ، الحيوانات الدنيا Bêtes ولم اجد داعياً لهذه الإضافة .

(٢) أو تنوقف عن الوجود . راجع المونادولوجيا ، ٢٦ — ٢٨ .

التأمل ، قدرتها على اعتبار <sup>(١)</sup> ما يسمى بالآنا ، والجوهر ، والنفس ،  
والعقل ، أى باختصار الأشياء والحقائق اللامادية . وهذا هو الذى يمكننا  
من تحصيل العلوم والمعارف البرهانية <sup>(٢)</sup> .

٦ — لقد علمنا بحوث المحدثين ، ويؤيدها العقل فى ذلك أن  
الكائنات الحية التى نعرف أعضائها <sup>(٣)</sup> ، أى النباتات والحيوانات ، لا تنشأ  
عن عملية تعفن أو عن عاء ، كما تصور ذلك القدماء ، وإنما تنشأ عن بذور  
سبق تشكيلها من قبل ، ولهذا فهى لا تعدو أن تكون تحولات لكائنات حية  
سبقتها فى الوجود . وفى بذور الحيوانات الكبيرة وحيوانات صغيرة تكتمل  
عن طريق الحمل ثوبا جديداً <sup>(٤)</sup> تكملة <sup>(٥)</sup> وتتخذ منه وسيلة تمكنها من  
من الغذاء والنمو لى تنقل إلى مسرح أوسع وتعمل على تكاثر الحيوان  
الكبير <sup>(٦)</sup> . والحق أن نفوس الحيوانات البذرية ( المنوية ) البشرية غير  
حائزة على العقل ، وإنما تصبح عاقلة عندما يطبع الحمل هذه الحيوانات  
بالطبيعة البشرية . وكما أن الحيوانات بوجه عام لا تنشأ أبداً نشأة تامة

---

(١) أو ملاحظة .

(٢) راجع المونادولوجيا ٢٦ و ٢٨ — ٣٠ .

(٣) كل المونادات ذات أجسام عضوية ، وتتصل سلسلة المونادات والأجسام  
العضوية من أدنى المونادات التى لا تكاد تدرك أجسامها إلى موناة المونادات  
أو الله المنزلة عن الجسمية كل التنزيه . وبين طرفى السلسلة كائنات لا نعرف عن  
أعضائها شيئاً .

(٤) أو شكلاً خارجياً جديداً .

(٥) أو تجعله شيئاً خاصاً به .

(٦) راجع المونادولوجيا ، ٧٤ و ٧٥ .

مع الحل أو الانجذاب<sup>(١)</sup> فإنها لا تفسد فساداً تاماً فيما نسميه بالموت . لأن العقل يقول لنا إن ما لا يبدأ بداية طبيعية لا يمكن بالمثل أن ينتهي نهاية طبيعية في إطار النظام الطبيعي .

وهكذا فإنها عندما تخضع قناعتها أو غشائها<sup>(٢)</sup> إنما ترجع إلى مسرح أصغر حيث يمكنها أن تكون قادرة على الاحساس ومنظمة تنظيماً حسناً كما كانت في المسرح الأكبر<sup>(٣)</sup> سواء بسواء . وما قلناه منذ قليل عن الحيوانات الكبيرة ، يصدق بالمثل على تولد وموت الحيوانات البذرية نفسها ، أي أنها تنشأ عن نمو حيوانات بذرية أخرى أصغر منها تعد هي كبيرة بالقياس إليها ، لأن كل شيء في الطبيعة يمتد إلى ما لا نهاية .

هكذا نجد أن النفوس والحيوانات كليهما لا يقبل القبول ولا الفساد: وإنما هي تنشر ، وتطوى ، وتكتسى ثوباً ، وتخضع الثوب ، وتتحول (أشكالاً) إن النفوس لا تنفصل أبداً تمام الانفصال عن أجسامها<sup>(٤)</sup> ؛ ولا تنقل من جسم إلى جسم آخر جديد عليها كل الجدة . وإذن فلا وجود لتناسخ الأرواح ، بل هناك تحول أو انسلاخ<sup>(٥)</sup> . إن الحيوانات لا تغير إلا بعض أجزائها ، تأخذ هذه وتتخلى عن تلك<sup>(٦)</sup> ؛ وما يتم مع التغذي شيئاً

(١) التولد أو الانسال generation

(٢) يضيف المترجم الانجليزي « لاتا » : غشائها أو غطاءها البالي .

(٣) راجع المونادولوجيا ، ٧٣ و ٧٦ و ٧٧ .

(٤) حرفياً / لا تتركها تماماً أو لا تتخلى عنها .

(٥) حاولت المحافظة على المجانسة التي يعتمد إليها لينتج بين التناسخ

Metempsychosis والانسلاخ أو التحول والاستحالة Metamorphose

(٦) راجع المونادولوجيا ، ٧١ و ٧٣ و ٧٧ . ويلاحظ أن أرسطو يدين

تناسخ الأرواح أو تحولها في نفوس أخرى في كتاب النفس ، ١ و ٣ و ٤٠٧ ب ١٣ .

وفي جزئيات صغيرة غير محسوسة ولكن بصورة دائمة يظهر نجاة وبصورة ملحوظة — وإن تسكن نادرة — مع الحمل والموت اللذين يجعلان الحيوانات تكسب الكثير أو تفقد الكثير دفعة واحدة .

٧ — لم نكلم حتى الآن بوصفنا فيزيقيين <sup>(١)</sup> ؛ وينبغي علينا الآن أن نرتفع إلى مستوى المتيفيزيكا ، بحيث نستخدم المبدأ الهام الذي قلما طبق بوجه عام ، وهو المبدأ الذي يقول إنه مامن شيء يحدث بغير سبب كاف ، أى أنه مامن شيء يتم وقوعه بغير أن يكون في إمكان من يعرف الأشياء معرفة كافية أن يقدم سببا يكفي لتحديد علمة وقوعه على هذا النحو لاعلى نحو آخر . فاذا وضع هذا المبدأ كان أول سؤال يحق لنا أن نطرحه هو هذا السؤال : هم كان وجود (شيء ما) ولم يكن بالآخرى عدم . ذلك لأن العدم أبسط وأيسر من أى شيء . وإذا افترضنا ضرورة وجود أشياء ، فقد لزمنا أن نكون قارين على تقديم سبب يبين لماذا يتعتم أن توجد على هذه الصورة لاعلى صورة أخرى <sup>(٢)</sup> .

٨ — بيد أن هذا السبب الكافي لوجود العالم لا يمكن العثور عليه داخل سلسلة الأشياء الحادثة ، أى الأجسام وتمثلاتها في النفوس : إذا لما كانت المادة بماهى كذلك تقف من الحركة والسكون ومن حركة معينة بذاتها موقف عدم المبالاة ، فلا يمكن أن نجد فيها سبب الحركة بوجه عام ناهيك عن سبب حركة معينة . ومع أن الحركة الحاضرة الموجودة في المادة تنشأ عن الحركة السابقة عليها ، كما أن هذه تنشأ عن أخرى سابقة ، فإننا لن نتقدم خطوة واحدة مهما شاء لنا التمادى في الرجوع إلى الوراء : لأن السؤال

(١) أى دارسين للطبيعة .

(٢) المونادولوجيا ٣٢ :

نفسه سيطر مطروحا على الدوام . يلزم عن هذا أن السبب السكافي ، الذي لا يحتاج إلى سبب آخر سواء ، يجب أن يقع خارج سلسلة الأشياء الحادثة وأن يوجد في جوهر يكون علة هذه السلسلة كما يكون كائنا ضروريا يحمل في ذاته سبب وجوده ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما وجدنا سببا كافيا يمكننا أن نقف عنده . وهذا السبب الأخير الأشياء يسمى الله<sup>(١)</sup> .

١ — ينبغي لهذا الجوهر الأول البسيط<sup>(٢)</sup> أن يحتوى على أقصى قدر ممكن من كل الكمالات المتضمنة في الجواهر المشتقة<sup>(٣)</sup> الناتجة عنه . ولهذا فيكون كامل القوة والمعرفة والإرادة ، أى سيكون مطلق القدرة ، شامل العلم ، واسع الرحمة<sup>(٤)</sup> . ولما كانت المعدالة بأعم معانيها لا تخرج عن أن تكون هي الخيرية المطابقة للحكمة ، فلا بد أيضا من أن يوصف الله بالمعدالة . في أسى صورها . والسبب الذي جعل الأشياء تستمد منه<sup>(٥)</sup> وجودها ، هو كذلك الذي يجعلها تعتمد عليه في استمرار وجودها . وسائر أفعالها وتلقاها منه على الدوام كل ما يضاف عليها نوعا من الكمال ، أما ما يبقى عن أوجه النقص فيرجع إلى ما فطرت عليه المخلوقات من قصور<sup>(٦)</sup> أساسى مقأصل

---

(١) أنظر المونادولوجيا ٣٦ — ٣٨ وكذلك رسالة ليمتيز عن الأصل المطلق للأشياء ( ١٦٩٧ ) .

(٢) أو الجوهر الأصيل substance Primitive

(٣) المتفرعة أو المستمدة منه .

(٤) أو سيحتوى على أعظم قدر من القوة والعلم والخيرية .

(٥) أى من الله .

(٦) أو محدودية .

فيها<sup>(١)</sup>.

١٠ - يلزم عن الكمال الأقصى لله أنه عندما أبدع العالم قد اختار أصاح خطة ممكنة يتحدد فيها أعظم قدر من التنوع مع أعظم قدر من النظام: حيث ينفع<sup>(٢)</sup> بالأرض ، والسكان ، والزمان على خير وجه ، وتحقيق أعظم الفوائد بأبسط الوسائل: وحيث زودت المخلوقات من القوة والمعرفة والسعادة والخير بأعظم قدر يمكن أن يسمح به العالم<sup>(٣)</sup>.

ولما كانت جميع الممكنات التي في ذهن الله تطمح للوجود على قدر كمالها ، فيلزم أن تكون النتيجة المترتبة على جميع هذه المطامح هي العالم الواقعي بوصفه أكمل العوالم الممكنة ، وبغير هذا لن يتسنى إيجاد سبب يبرر سير الأمور على هذا النحو دون غيره<sup>(٤)</sup>.

١١ - لقد اقتضت حكمة الله السامية<sup>(٥)</sup> أن يختار أنسب قوانين الحركة

---

(١) راجع المونادولوجيا ، ٤٢ - والعبارة الأخيرة تلخص الفكرة التي تقوم عليها الشيوذيسية ، أو رسالة لينتز المشهورة في الدفاع عن رحمة الله وخيريته في وجه الشر والالام الموجودين في العالم . فالله هو مصدر الكمال الموجود في كل موناذة ، لأن اختياره لأفضل عالم ممكن هو الذي يمنح المونادة وجودها كما يتيح لها أن تستمر في هذا الوجود . وكل المونادات تحتوى على نقص من نوع ما ، ولكنه نقص كامن فيها ، متأصل في طبيعتها - ولو لم تكن مشوبة بالنقص والتحدد والقصور لما أمكن تمييزها عن الله ...

(٢) حرفيا : حيث رتبت أو نظمت على أفضل وجه ، وقد جاريت المترجم الألماني في هذا التصرف البسيط .

(٣) راجع المونادولوجيا ٥٥ - ٥٨ .

(٤) راجع المونادولوجيا ٥٣ - ٥٤ .

(٥) حرفيا : القصوى supreme ( م ٨ - المونادولوجيا )

وأكثرها ملائمة للأسباب المجردة أو الأسباب الميتافيزيقية . ( وبفضل هذه القوانين ) تبقى كمية القوة السككية المطلقة أو كمية الفعل ثابتة على الدوام ، وتبقى نفس كمية القوة المتبادلة <sup>(١)</sup> أو كمية رد الفعل ، كما تبقى أخيراً نفس كمية قوة الاتجاه ثابتة على ما هي عليه . وفضلاً عن هذا فإن الفعل يساوى دائماً رد الفعل ، كما أن النتيجة الإجمالية تعادل على الدوام سببها الحقيقي برمتها . ومما يدعو للعجب أن الاختصار على النظر في العلة الفاعلة أو المادة يجعل الإنسان عاجزاً عن إثبات قوانين الحركة هذه التي اكتشفت في أيامنا وكنت أنا نفسي من بين الذين أسهموا في الكشف عن بعضها فقد وجدت من الضروري اللجوء إلى العلة الغائية ، ( كما وجدت ) أن هذه القوانين لا تعتمد على مبدأ الضرورة كالحقائق المنطقية والحسابية والهندسية ، بل تعتمد على مبدأ الملائمة <sup>(٢)</sup> أى على الاختيار الذي تم بفضل الحكمة ( الآلهية ) . وهذا من أقوى الأدلة على وجود الله وأولاه بالعناية والتدبير من كل من بعدهم التعمق في هذه الأمور <sup>(٣)</sup> .

(١) أو النسبية تمييزاً لها عن القوة المطلقة الشاملة التي تتعلق بالعالم المادى أو عالم الأجسام في مجموعه . وهي مطلقة لأنه لا توجد قوة أو قوى أخرى متعلقة بها بحيث تزيد أو تنقص منها ، ولكن هناك قوتين نسبيتين داخل هذا النظام السككى ، متعلقتين بالأجزاء التي يتركب منها : هاتان القوتان هما القوة النسبية أو قود رد الفعل التي تقوم على الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين أجزاء النظام ، وقوة الاتجاه وهي القوة المتضمنة في الفعل الخارجى للنظام .

(٢) تقابل كلمة convenance ( fitness, Angemessenheit ) وقد فضلتها على الموافقة أو المناسبة .

(٣) قارن المونادولوجيا ، ٥١ - والمعنى أنه لا يمكن استنباط قوانين =

١٢ - ويلزم عن كمال المبدع الأعظم أن لا يكون نظام العالم هو أكمل نظام ممكن فحسب . بل يلزم منه كذلك أن كل مرآة حية تصور العالم من وجهة نظرها ، أى أن كل موقادة أو كل مركز جوهري لابد أن تكون إدراكاته ومنازعه منظمة على أفضل وجه بحيث تتوافق مع سائر الأشياء في مجموعها . ثم يلزم عن هذا أيضا أن النفوس ، أى المونادات المتفوقة على كل ماعداها ( من المونادات ) ، بل الحيوانات نفسها . لابد أن تصحو ثانية من حالة الغيبوبة التي يمكن أن يضعها فيها الموت أو أى حادث آخر .

١٣ - لأن جميع الأشياء قد سويت مرة واحدة وإلى الأبد على أكبر قدر ممكن من النظام والتوافق<sup>(١)</sup> ، إذ أن الحكمة والرحمة<sup>(٢)</sup> السامية لا يمكن أن تعصرف إلا بمقتضى التجانس<sup>(٣)</sup> السكامل : إن الحاضر يحمل

== الحركة والفعلية ، بطريقة قبلية ، بل لابد العلم بها من الرجوع للتجربة . والتجربة تعلمنا أن كل جسم يحتوى على قوة ، ( أو طاقة بالتعبير الحديث ) خاصة به ، وأن جميع الأجسام في حقيقتها الأخيرة قوى مستقلة ( أو مونادات ) يختلف كل منها عن الآخر اختلافا لاجد له ، ولسكنها مع ذلك من الاتساق والتجانس مع بعضها البعض بحيث تكون نسقا أو نظاما كاملا يمكن اكتشاف قوانينه . ومن المستحيل أن يكون هذا النظام قد وجد بذاته ، أو بقانون الضرورة العمياء أو أى مبدأ آخر لا يكتسب بالخير والشر ، مثل مبدأ عدم التناقض . لابد إذا أن يكون إله كامل القوة والحكمة والرحمة هو الذى اختار هذا النظام من بين سائر النظم الممكنة .

(١) أو التطابق والتناغم .

(٢) الخيرية والطيبة .

(٣) أو الاتساق .

المستقبل في أحشائه . والمستقبل يمكن أن يقرأ من صفحات الماضي ، والبعيد يعبر عنه في القريب . وفي استطلاعنا أن نتمين جمال العالم في كل نفس ، لو أمكننا أن ننشر كل طياتها التي لا تنبسط بشكل ملحوظ إلا بمرور الزمن . ولكن لما كان كل إدراك مقيّم للنفس يحتمل على عدد لا حصر له من الإدراكات المختلطة التي تحيط بالعالم كله ، فإن النفس ذاتها لا تعرف الأشياء التي تدركها إلا بقدر ما تكون هذه الإدراكات واضحة ومتميزة ، ويقاس كماليها ( أى النفس ) بحسب إدراكاتها الواضحة . إن كل نفس تعرف اللامتناهى ، تعرف كل شيء ، ولكنها بطبيعة الحال تعرفه على نحو غامض ، كما يحدث لى مثلاً عندما أسير في نزهة على شاطئ البحر وأسمع هديره الصاخب ، فإننى اسمع في نفس الوقت أصواتاً مفردة من كل موجة على حدة تؤلف مع غيرها من الأصوات الهدير العام للبحر ، وذلك دون أن أقدر على تمييز بعضها من البعض الآخر . إن إدراكاتنا الغامضة إنما هى نتيجة الانطباعات التي يقرنها فيها العالم بأكملة ، وكذلك الشأن مع كل موناذة<sup>(١)</sup> . والله وحده هو الذى يملك المعرفة الواضحة بكل شيء ، لأنه هو مصدر كل شيء . وقد قيل بحق إن مركزه يقع في كل مكان ، أما محيط دائرته فليس موجوداً في أى مكان ، إذ أن كل شيء بالنسبة إليه حاضر حضوراً مباشراً ، دون أدنى بعد عن هذا المركز .

١٤ - أما عن النفس العاقلة أو العقل فإن فيه شيئاً يزيد عما في المونادات أو النفوس البسيطة نفسها<sup>(٢)</sup> . فليس مجرد مرآة لعالم المخلوقات ،

(١) راجع المونادولوجيا ، ٦٠ و ٦١ .

(٢) المونادات في هذه العبارة هى المونادات غير الواعية ، أما النفوس البسيطة فهى النفوس الواعية التي لم تبلغ بعد مرحلة الوعي الذاتي .

بل هو كذلك صورة من الألوهية . إن العقل لا يقهر على إدراك أعمال الله ، بل إنه لقادر على إبداع شيء شبيه بها، وإن يكن ذلك في نطاق أصغر . لأنه ، بفضل النظر عن عجائب الأحلام التي نخزع فيها بلا عناء ( ولكن بغير قصد منا أيضا ) أشياء يتحقق علينا أن نتفكر فيها طويلا إذا أردنا أن نجد لها بعد اليقظة ، فإن نفوسنا تجري في أفعالهم الإرادية أيضا على طريقة المهندسين<sup>(١)</sup> ، وهي حين تكتشف العلوم التي سوى الله الأشياء بمتضاها ( طبقا للوزن ، والمقياس ، والعدد . . . إلخ<sup>(٢)</sup> ) فإنما تحاكي — في مجالها وفي عالمها الصغير الذي يتيح لها التصرف في حدوده — ما يقوم به الله في العالم الكبير من أفعال<sup>(٣)</sup> .

١٥ — لهذا فإن جميع الأرواح ، سواء كانت بشراً أو أرواحا خالصة<sup>(٤)</sup> ، تدخل بفضل العقل والحقائق الأبدية مع الله في جماعة من نوع ما ، وتشارك كأعضاء في مدينة الله ، أى في أكمل دولة أسسها ويدير أمورها أعظم الحكام وأصحابهم . وليس في هذه الدولة جريمة بنير عقاب ، ولا فعل طيب بغير ثواب مكافئ له ، وعلى الجملة أقصى ما يمكن تصوره

(٣) أو تنحو في أفعالها نحو هندسيا .

(٢) الكلمات الثلاث في الأصل باللاتينية *Pondere mensura, numero* وهي مستمدة من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ( الفولجاتا — سفر الحكمة ، الفصل الثاني ، ١١ و ٢١ ) عن عبارة كانت تقتبس كثيراً في أيام لينتن : « ولكنك نظمت كل شيء بالمقياس والعدد والوزن » :

(٣) راجع المونادولوجيا ، ٨٢ .

(٤) في الأصل *Génies* وقد تصرف فيها دلاتا ، فجعلها د الملائكة ، .

من الفضيلة والمادة. ولا يتحقق هذا بإخراج الطبيعة عن نظامها الطبيعي<sup>(١)</sup>، وكأن ما يهيئ الله للنفس بمطل<sup>(٢)</sup> قوانين الأجسام ، وإنما يقوم وفقاً لنظام الأشياء الطبيعية ذاتها ، بفضل الاتساق المقدر منذ الأزل بين مملكة الطبيعة ومملكة الفضل الإلهي ، بين الله بوصفه المهندس والله بوصفه الحاكم بحيث تؤدي الطبيعة نفسها إلى الفضل الإلهي ، كما يحقق الفضل الإلهي كمال الطبيعة باستخدامه لها<sup>(٣)</sup> .

١٦ — وعلى الرغم من أن العجز عن إفادتنا بشيء من دقائق المستقبل البعيد<sup>(٤)</sup>، الذي أذخر العلم به للوحى ، فإننا نستطيع مع ذلك أن نقا كدعن طريق هذا العقل نفسه من أن الأشياء قد خلقت على نحو يفوق كل ما نقيها، ولما كان الله ، وهو أكمل الجواهر وأسمدها ، هو كذلك أجدرها بالحب وكان الحب النقي الصادق<sup>(٥)</sup> يقوم على الفرح بما يصيب المحبوب من أسباب

(١) أو بالتدخل في مجرى الطبيعة (لاتا) .

(٢) أو يعوق .

(٣) راجع المونادولوجيا ، ٨٤ - ٨٩ .

(٤) حرفياً : المستقبل الكبير أو العظيم .

(٥) أى الحب الذى يقوم على الايثار ( راجع المونادولوجيا ، ٩٠ ) ، تمييزاً له عن حب الذات وقد كان هذا الحب الخالص من أهم الموضوعات التى ثارت حولها مناقشات مستفيضة فى القرن السابع عشر ، خاصة بين الخطيب اللاهوتى الأشهر بوسويه ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ ) والاسقف والكاتب فنيون ( ١٦٥١ - ١٧١٥ ) - صاحب مغامرات تليماك التى ترجمها رفاعه الطمطاوى - وقد أكد فنيون أن المحبة الخالصة لله أمر ممكن ، بغض النظر عن الثواب والعقاب . وعارضه بوسويه فى هذا ، وإنتهى الأمر بإدانة البابا لاونست الثانى عشر لآراء فنيون، وقد تناول لينتزر هذه المسألة بشيء من التفصيل فى مقدمة رسالته وأفكار عن الحق والعدل ( ١٦٩٢ ) .

الكمال والسعادة - فإن هذا الحب عندما ينصب على الله ، خالق بأن يقيح لنا أكبر قدر من البهجة يسمنا القنعم به .

١٧ - ومن السهل علينا أن نحبه الحب الذى هو جدير به ، لو عرفناه على النحو الذى ذكرته<sup>(١)</sup> . فعلى الرغم من أن الله يستعصى على إدراك حواسنا الخارجية ، فإنه مع ذلك محبوب غاية الحب ، ويمدحنا أسمى آيات الفرح . أننا نلاحظ مقدار ما تدخله أسباب التكريم<sup>(٢)</sup> من البهجة على قلوب الناس ، حتى ولو لم تسكن لها خصائص الأشياء التى يمكن إدراكها إدراكاً خارجياً . أن الشهداء والمتمهين ( وإن كانت عاطفة هؤلاء عاطفة منحرفة غير سوية ) شواهد تدل على ما يمكن أن تصنعه البهجة العقلية ، وأهم من هذا أن المباحج الحسية نفسها يرجع إلى مباحج عقلية لم تعرف معرفه واضحة<sup>(٣)</sup> .

أن الموسيقى تسحر أفئدتنا ، وأن كان جمالها لا يقوم إلا على تناسب<sup>(٤)</sup> الاعداد والعد الذى لا تشعر به شعوراً واعياً ، ومع ذلك فإن النفس تقدره على أساس الضربات والذبذبات المنبعثة من الأجسام الرنانة التى تتلاقى<sup>(٥)</sup> فى فواصل زمنية معينة . والبهجة التى تجدها العين فى النسب هى

(١) يقول نيقولا السكوزانى ( الدعوات من المواعظ م ١٠ و ١٨٨ ب ) :  
« الله محبة ، يعرف بالحب ، ويحب بالمعرفة » .

(٢) أى ما يخلع عليهم من الملوك والروساء والأمراء من جوائز وأوسمة وعطايا ، أو من أسباب الرفعة والتكريم .

(٣) لأن الحس نفسه إدراك غامض غير متميز .

(٤) أى على الاتساق والتوافق بين الاعداد وعد الضربات والاهتزازات . الخ .

(٥) أى الضربات والذبذبات .

من نفس هذا النوع ، كما أن مباحج الحواس الأخرى ترجع إلى أمور مشابهة ، وأن كنا لانملك أن نفسرها تفسيراً واضحاً<sup>(١)</sup> .

١٨ - نستطيع بالمثل أن نقول أن محبة الله تقيح لنا من الآن الاسقمعاع بمذاق أولى للسعادة المقبلة<sup>(٢)</sup> ، ومع أنها<sup>(٣)</sup> منزهة عن الغرض فإنها تحقق بذاتها أعظم خير وأكبر نفع لنا ، حتى ولو لم نسع إليها ولم نضم في الاعتبار إلا الفرح الذي تمنحنا إياه ، دون الثقات المنفعة التي تنفج عنها . ذلك أنها تبث فينا الثقة السكاملة في رحمة<sup>(٤)</sup> خالقنا ومولانا ، وهذه الثقة تبث على الطمأنينة الروحية الحققة ، التي لاتصدر عن تصبر<sup>(٥)</sup> مفروض على النفس ، كما هو الحال عند الرواقين ، بل عن شعور مباشر بالرضا والقناعة ، يجملنا على يقين من سعادة مقبلة<sup>(٦)</sup> . وبجانب هذه البهجة المباشرة التي

(١) لا يقصد ليبتز أن البهجة التي نشعر بها عند سماع الموسيقى أو تأمل اللوحات والرسوم ترجع برمتها للحواس ، وإنما يريد أن يؤكد أن العنصر الحسى الذى تنطوى عليه المتعة الفنية هو فى الحقيقة أو فى نهاية التحليل عنصر عقلى . وهو يوضح هذا عندما يقول أنه يعتمد على إدراك النسب والعلاقات والايقاعات إدراكاً لم تتوصل بعد إلى معرفة حقيقته .

(٢) أى السعادة التي ستكتب لنا فى الحياة الأخرى .

(٣) أى محبة الله .

(٤) حرفياً : خيرية أو طيبة bonté

(٥) أو تحمل قسرى تدرت عليه النفس بالقوة والاكراه .

(٦) يقول ليبتز فى اليهوديسيه ، ٢٥٤ : « هناك فارق كبير بين الاخلاق

الحقة والاخلاق التي يدعو إليها الرواقيون والايقوريون ، شبيه بالفارق بين الفرح والصبر ، لأن طمأنينتهم كانت تقوم على الضرورة وحدها ، أما الطمأنينة الروحية عندنا فينبغى أن تقوم على كمال الاشياء وجمالها ، على سعادتنا الخاصة .

تقييدها فليس هناك شيء أنعم المستقبل من محبة الله ، لأنها تحيي كذلك آمالنا وتوقد خطانا على طريق السعادة القصوى . فقد خلق كل شيء ، بفضل النظام الكامل القائم في العالم ، على أحسن وجه ممكن ، سواء بالنظر إلى الصالح العام ، أو النظر إلى المصلحة العظمى التي تعود على المتقنعين به ، الراضين عن الحكومة الإلهية . هذا الاقتناع والرضا لن يعوز أولئك الذين يعرفون كيف يحبون منبع كل خير .

صحيح أن السعادة القصوى ( أيأ كانت الرؤية المباركة أو معرفة الله التي تصحبها ) لا يمكن أن تتحقق تحقفا تاما ، لأن الله ، وهو غير متناه ، ان يقسنى معرفته معرفة كاملة .

ومن ثم فإن تقوم سعادتنا ولا ينبغي لها أن تقوم على الاستمتاع الكامل الذي ان بدع مجالا للتمنى وسيصيب عقولنا بالتبلىء ، بل يجب أن تقوم على التقدم المتصل نحو أفراح جديدة وألوان جديدة من السكامل .



المونادولوجيا



١ — ليست المونادة ، التي سنحدث عنها هنا ، سوى جوهر بسيط ، يدخل في تكوين المركب ، والبسيط معناه ، لا أجزاء له . ( قارن التيوديسية ١٠ ) (١) .

٢ — ويجب أن تكون هناك جواهر بسيطة ، ما دامت هناك جواهر مركبة ، إذ ليس المركب إلا كومة أو مجموعة مؤلفة من بسائط (٢) .

٣ — وحيث لا تكون أجزاء (٣) ، لا يمكن أن يكون ثمة امتداد ، ولا شكل ولا انقسام . وهذه المونادات هي الذرات الحقة ( التي تتكون منها الطبيعة ) وهي على الجملة عناصر الأشياء .

٤ — كذلك ليس هناك ما يدعو للخوف من تحللها ، ولا سبيل على الإطلاق لتصور فساد الجواهر البسيط فسادا طبيعيا .

---

(١) تتصل هذه الإشارة وغيرها من الاشارات الواردة في أواخر الفقرات بمواضع مقابلة لها في كتاب لينتزر عن العدل الالهي ( التيوديسية ) . والجدير بالملاحظة أن لينتزر هو الذي أضافها بنفسه إلى المخطوطة الأصلية ، ونجد فرقا طفيفا ولكنه بالغ الأهمية بين هذه الفقرة وبين الفقرة الأولى من « المبادئ » ، إذ يتحدث لينتزر هناك عن المركب بوجه عام ، بينما يتحدث هناك عن الجواهر المركبة . ولا بد أنه يعنى الجسم في الحالتين ، إذ يقول عنه في موضع آخر أنه ليس جوهرا بالمعنى الدقيق للكلمة ، ومن ثم فإن تعبير « الجواهر المركبة » المستخدم في المبادئ لا بد أن يكون خاطئا ، لأن الجواهر لا يمكن أن يكون مركبا . ولا بد من الالتفات إلى هذه التفرقة حتى لا يساء فهم مذهب لينتزر الذي لم يراع الدقة في استخدام المصطلح .

(٢) أو أشياء بسيطة .

(٣) أي حيث لا تكون ثمة فروق مكانية .

٥ — ولم-ذا السبب نفسه لا يمكن أن نتصور نشوء الجوهر البسيط على نحو طبيعي ، إذ أنه لا يمكن أن يتكون عن طريق التركيب <sup>(١)</sup> .

٦ — وهكذا يمكن القول بأن المونادات لا تنشأ أو تفسد إلا بضربة واحدة أى أنها لا تنشأ إلا بالخلق ولا تفسد إلا بالافناء <sup>(٢)</sup> ، أما المركب فينشأ من أجزاء ويفسد في أجزاء <sup>(٣)</sup> .

٧ — ولا سبيل كذلك إلى تفسير إمكان تأثير المونادة أو تغييرها من داخلها عن طريق أى مخلوق آخر <sup>(٤)</sup> ، إذ يستحيل أن يقل إليها شيء أو أن تتصور فيها أية حركة باطنة يمكن أن تثار أو توجه أو تزيد أو

---

( ١ ) أولا يمكن أن يتشكل بالتدريج عن طريق إضافة جزء إلى جزء ، إذ أن المونادات بلا أجزاء . ومع هذا فيمكن القول بأن المونادة لا تولد كاملة تامة بل تتطور من داخلها تطورا تدريجيا . فلماذا يستحيل عليها إذا أن توجد على نحو طبيعي ؟

( ٢ ) يلاحظ أن ليمنتز يستخدم كلمتي « تبدأ وتنتهي » ، وقد سايره في ذلك المترجم الانجليزي « لانا » أما الألماني فترجمها بالنشوء والفساد . والمراد بهذه الفقرة هو تأكيد خلق المونادات ، مع ملاحظة أن هذا الخلق ليس حدثا يتم في الزمان ، لأن الزمان والمسكان متعلقان بالظواهر وحدها ، أما المونادات فلا توجد في مكان ولا زمان ، بل هي شروط لوجودهما .

( ٣ ) أو على أجزاء ، أى أنه يتكون ويفسد جزءا جزءا .

( ٤ ) أى أن الأشياء الأخرى لا يمكنها أن تغير من طبيعة المونادة بحيث تستحيل شيئا آخر ، ولا أن تغير حالتها تغيرا من ذلك النوع الذى يصيبها دون أن يستلزم بالضرورة تغير طبيعتها .

تنقص ؛ وذلك على خلاف الأشياء المركبة <sup>(١)</sup> التي نجد فيها تغيرا في علاقة الأجزاء بعضها ببعض . ليس المونادات نوافذ يمكن من خلالها أن ينفذ إليها شيء أو يخرج منها . إن الأعراض لا يمكنها أن تنفصل عن الجواهر ولا أن تتحول خارجها ، كما كانت تفعل الصور الحسية <sup>(٢)</sup> عند المدرسين . وهكذا يستحيل على الجواهر والعرض أن ينفذا إلى المونادة من الخارج .

٨ — ومع ذلك فيجب أن تشمل المونادات على بعض الخصائص ، وبغير هذا لا يقضى لها أن تصبح كائنات على الإطلاق <sup>(٣)</sup> وإذا لم تفاوت

---

(١) تتضمن هذه العبارة أن كل تغيير يلحق بالاجسام إنما يرجع إلى تغير الأجزاء . كما يرجع في النهاية إلى التغير في كمية الحركة واتجاهها .

(٢) *species sensibiles* لاثنية ترجمتها الحرفية هي الأنواع الحسية وتقابلها في اليونانية الايدوس *Eidos* وكان المدرسيون في العصور الوسطى يقصدون بها صور الادراك الحسى (في مقابل الصور العقلية *Species intelligibilis*) متأثرين في هذا التمييز بنظرية الصور والانعكاسات التي ترجع إلى ديموقريطس وتفسر الادراك الحسى بالصور التي تنبعث من الأشياء وتؤثر على أعضاء الحس . ويبدو أن لينتز كان يفكر عند كتابة هذه العبارة في النظرية التي قال بها القدماء من أصحاب مذهب الذرة من أن هناك جزيئات أو جسيمات تنفصل في عملية الادراك عن الشيء المدرك وتنتقل إلى المدرك فتتحول إلى صور أو تمثيلات للسكيفيات والخصائص الموجودة في ذلك الشيء . وقد سمي ديموقريطس هذه الصور د بالايڊولات ، أما نظرية المدرسين فتتلخص بوجه عام في أن الأنواع والصور الحسية والعقلية التي لدينا تشترك اشتراكا ما مع أعراض الأشياء أو ماهيتها الموجودة فيها ، وإن كان الخلاف كبيرا حول طبيعة هذه العلاقة بين الصور والأشياء .

(٣) كتب لينتز بعد هذه الجملة عبارة شطبها من الأصل ويقول فيها =

الجواهر البسيطة عن طريق خصائصها المميزة<sup>(١)</sup> ، فإن تكون هناك وسيلة للتحقق من أى تغير يلحق الأشياء ؛ لأن ما يوجد فى المركب لا يمكن أن يأتى إلا من عناصره البسيطة . فلو كانت المونادات بغير خصائص ، وكانت بالقالى غير متميزة عن بعضها البعض - إذ أنها لا تختلف أيضا عن بعضها من ناحية الكم - لترتب على هذا ، مع افتراض الملاء<sup>(٢)</sup> الا يقبل كل مكان<sup>(٣)</sup> فى أثناء الحركة غير محوى واحد مكافئ للمحتوى الذى كان يشغله من قبل ، بهذا يتمذر تعذرا تاما تميز حالة تكون عليها الأشياء عن حالة أخرى - ( راجع القيود بسية ، المقدمة ، ٢ ب ) .

٩ - يتعزم أن تكون كل مونادة مختلفة عن الأخرى . إذ يستحيل

---

== ولو كانت الجواهر البسيطة لا شيء ، لردت المركبات أيضا إلى اللاشيء . وهذا يؤكد أن النكائن الذى لا كيفية له لا يمكن تمييزه عن اللاشيء . ويبدو أن لبيقتن يقصد الإشارة ضمنا إلى أن المونادة لا بد أن تكون لها أكثر من كيفية . هذا ونجد هربارت ( ١٧٧٠ - ١٨٤١ ) الذى أشرنا إليه فى المقدمة ، والذى تأثر بليقتن وأقام مذهبه الميتافيزيقى على أساس فكرة المونادة ، يصف المونادات بأنها كيفيات أولية ويقول إن الجوهر لا يكون بسيطا بحق إلا إذا احتوى على كيفية نهائية واحدة .

(١) أو كيفياتها

(٢) استخدمت الكلمة القديمة المألوفة فى كتابات الفلاسفة المسلمين ، وهى ترجمة لكلمة *le Plein* التى يستخدمها لبيقتن ، والمراد بها المكان الممتلئ بالأفراغ ولا قفزات .

(٣) أى كل جزء من أجزاء المسكان .

أن يوجد في الطبيعة كائنان متشابهان تشابها كاملا ، بحيث يتعذر ألا نعثر فيهما على خلاف قائم على خاصية باطنة<sup>(١)</sup> .

(١) هذا هو المبدأ المعروف « بهوية اللامتميزات » ، وهو مترتب على طبيعة المونادة نفسها . فشكل مونادة جزء أو عنصر من عناصر العالم ، بمعنى أنها أشبه بمرآة تعكسه من زاوية معينة أو منظور مختلف عن أي مونادة أخرى . ولما كانت المونادات منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ، فلا بد أن تعكس كل منها العالم بطريقة مختلفة . ولهذا فلا يمكن أن نجد مونادتين ( وبالتالي لا يمكن أن نجد شيئين ، إذ الأشياء مركبات مؤلفة من مونادات ) متشابهتين تمام التشابه ، ولا يمكن أيضاً أن يكون الفرق بين الأشياء مجرد فرق في العدد . وتختلف المونادات عن بعضها البعض من حيث الكيفية أو الخاصية وحدها ، بحيث يستحيل أن نجد مونادتين لا تختلفان من ناحية الكيف . ومعنى هذا كله أن الموجودات أفراد متميزة ، وأننا لا يمكن أن نجد من بينها فردين غير متميزين . وقد روى ليبنتز في رسالته الرابعة إلى كلارك Clarke قصة طريفة جرت له عندما كان يتمشى في حديقة « هيرنهاوزن » مع راعيته صوفي أميرة هانوفر ومعهما « سيد ذكي » من معارفه . ويبدو أن ليبنتز كان يشرح مبدأ التفرد أو التميز الذي يتحدث عنه ، فزعم هذا السيد الذكي أن من السهل عليه أن يجد ورقتي شجر متشابهتين تمام التشابه — لم تصدقه الأميرة ، فراح يبحث عبثاً عن الدليل بين أوراق الشجر .. ويعاق ليبنتز على هذه القصة بقوله « أن من الممكن التميز بين قطرتي الماء أو اللبنة إذا نظرنا إليهما من خلال الميكروسكوب ( المجهر ) . ولو افترضنا وجود شيئين لا يمكن التمييز بينهما لكان معنى هذا أننا نفترض نفس الشيء تحت اسمين مختلفين » — ولعل الفيلسوف اللاهوتي الألماني نيقولاوس الكوزاني ( نسبة إلى بلدة كوز على نهر الموزل ١٤٠١ — ١٤٦٤ ) هو أول من فطن إلى هذا المبدأ وعبر عنه . فهو يقول إن من المستحيل وجود عدة أشياء متشابهة تمام التشابه ، إذ لن تكون لدينا في هذه الحالة عدة أشياء بل نفس الشيء . ولذلك فإن جميع الأشياء تتفق مع بعضها وتختلف عن بعضها في آن واحد . يقول في كتابه العلم بالجهل أو العلم = ( م ٩ — المونادولوجيا )

١٠ — لا نزاع عندى أيضاً<sup>(١)</sup> فى أن كل كائن مخلوق عرضة للتغير، وبالتالى تكون المونادة المخلوقة كذلك ، كما أن هذا التغير يتم بامتداد فى كل مونادة .

١١ — يتبين مما سبق أن التغيرات الطبيعية<sup>(٢)</sup> فى المونادات تصدر من مبدأ داخل ، إذ يستحيل على علة خارجية أن تؤثر على داخلها . ( قارن التيو ديسية ٣٩٦ ، ٤٠٠ ) .

١٢ — بجانب مبدأ التغير يجب أيضاً أن يكون هناك طابع خاص لما يتغير<sup>(٣)</sup> ، بحيث يكون علة نوعية الجواهر البسيطة وتنوعها .

= الجاهل ٣ و ١ : ولابد أن تختلف جميع الأشياء بالضرورة عن بعضها البعض . ولابد أن يكون هناك تنوع فى درجات السكال بين أفراد عديدة من نفس النوع . وما من شئ فى العالم لا يتمتع بتفرد معين لا نجد له نظيراً فى أى شئ آخر ، . - ولا شك أن هذه كلها أفكار يمكن أن تلهم ليبنتز بالكثير من آرائه ، ولكن ليس هناك دليل ثابت على ذلك ، ولا نجد فى كتاباته الفلسفية أية إشارة إلى هذا اللاهوتى العظيم ، اللهم إلا فى إحدى رسائله إلى مجلة العلماء Acta Eruditorum ( ١٩٦٧ ) حيث نراه يشير إليه بوصفه عالماً فى الرياضيات . وإن كان هذا لا ينفي أنه اطلع على كتابات الكوزانى ، إذ المعروف عن ليبنتز أنه لم يكن يميل إلى الاعتراف بمصادره !

(١) حرفياً : أرى كذلك أن من المسلم به أو المتفق عليه . وهناك تغير مستمر فى المونادات المخلوقة ، ولو لم يبد عليها أى تغير . وانتفاء التغير الذى يبدو لنا هو فى الحقيقة درجة بسيطة جداً من التغير . وهذه الفقرة تطبيق لمبدأ الاستمرار أو الاتصال ( أنظر الفقرة ١٣ والهامش ) .

(٢) أى التغيرات التى لا تتم بمعجزة أو نتيجة خلاق المونادة أو افنائها .

(٣) فى الأصل un detail de ce qui change ، وقد أخذنا بالترجمة الألمانية ، أما الترجمة الانجليزية ( لانا ، ص ٢٢٣ ، هامش ١٨ ) فتقول : لابد أن تكون هناك ، بجانب مبدأ التغير ، سلسلة خاصة من التغيرات .

١٣ - هذا الطابع الخاص ينطوى بالضرورة على كثرة في الوحدة أو في البسيط . فلما كان كل تغير طبعى يتم بالتدريج ، كان من الضروري أن تتغير بعض الأشياء ويبقى بعضها دون تغيير <sup>(١)</sup> . يلزم من هذا أن توجد في الجوهر البسيط كثرة من الخصائص والعلاقات ، على الرغم من أنه لا يتكون من أجزاء .

١٤ - والحالة العابرة التي تضم كثرة في الوحدة أو في الجوهر البسيط وتمثلها ليست إلا ما يسمى بالإدراك . ويجب التفرقة بينه وبين الوعى أو الشعور <sup>(٢)</sup> ، كما سيوضح مما يرد فيما بعد . وقد أخطأ الديكارتيون في هذه

---

(١) هذه إشارة واضحة إلى قانون الاستمرار أو الاتصال . فكل شيء يتغير باستمرار ، وفي كل جزء من هذا التغير يوجد عنصر دائم وعنصر متغير . أى أن كل شيء ، في كل لحظة ، يكون ولا يكون ، وكل شيء يصير شيئاً لا يجعله مع ذلك شيئاً آخر .

(٢) يقول ليمبنتز في رسالته إلى دى بوس Des Bosses ( ١٧٠٦ ) : ولما لم يكن الإدراك سوى التعبير عن أشياء كثيرة في شيء واحد ، فلا بد بالضرورة أن تكون جميع الانتليخات أو المونادات موهوبة بالإدراك . كما يقول كذلك في رسالة إلى ارنو Arnauld ( ١٦٨٧ ) : « إن اتصال المادة وانقسامها هو الذى يجعل لأقل حركة أثرها على الأجسام المجاورة ، وبالتالي على جسم بعد الآخر إلى ما لا نهاية ، بدرجة تقل شيئاً فشيئاً ، ولهذا فلا بد أن يتأثر جسمنا بالتغيرات التى تلحق بجميع الأجسام الأخرى . ولكن جميع حركات جسمنا تقابلها إدراكات لنفوسنا على حظ كبير أو قليل من الاختلاط ، وتبعاً لهذا فسوف تكون لدى نفوسنا أيضاً فكرة ما عن جميع الحركات التى تتم في العالم ، وفي رأي أن كل نفس أخرى أو جوهر آخر سيكون لديه شيء من الإدراك لها أو التعبير عنها .

المسألة خطأ كبيراً ، إذ أهملوا الإدراكات التي لا يشعر بها الإنسان إهمالاً تاماً<sup>(١)</sup> . وهذا هو الذي أدى بهم أيضاً إلى الاعتقاد بأن العقول وحدها موندات وأنه لا وجود لنفوس الحيوانات ولا غيرها من الانتليخيات<sup>(٢)</sup> وهو الذي جعلهم يخلطون بين الاغناء الطويل وبين الموت بمعناه الدقيق ، مذهبين في ذلك مع الرأي الشائع لدى العامة ، كما جعلهم كذلك يعمون

---

(١) من المعروف أن ديكارت يرى أن الحيوانات والنباتات ليست إلا آلات حية أو تكوينات ميكانيكية خالصة ، أو أجزاء من الامتداد بعيدة كل البعد عن الفكر والشعور . قارن المقال في المذهب ، الجزء الخامس ، والتأملات ٢ و ٦ ، ومبادئ الفلسفة ١ و ٤٨ .

(٢) Entelechie كلمة يونانية مركبة من en ( في ) و telos ( هدف — غاية ) وفعل المصطلح echein أى يملك غايته أو هدفه في ذاته وقد كان أرسطو أول من أرسى هذا المصطلح وأعطاه الصورة الحيوية والغائية التي لا تزال مرتبطة به . والانتليخيا عند أرسطو هي بوجه عام الصورة أو الشكل الذي يتحقق في المادة ، وهي بوجه خاص تلك القوة أو الطاقة الكامنة في الكائن العضوى الحى والتي تدفعه من الداخل إلى التحقق والشكل . ومن ثم يصف أرسطو النفس بأنها كمال أول ( انتليخيا ) لجسم عضوى قادر على الحياة ( كتاب النفس ، ٢ و ١ و ٤١٢ أ ) ويظهر هذا التصور الأرسطى في كل تفكير غائى ، سواء عند توماس الأكويني أو ليبنتز ( الموندولوجيا — والمقالات الجديدة ٣ و ٢١ ) أو جوته الذى تأثر بمذهب ليبنتز فى الموندادة وبرر به خلود الروح ( راجع أحاديثه مع إكرمان فى الثمانى من شهر مارس سنة ١٨٢٨ واليوم الأول من شهر سبتمبر ١٨٢٩ والثالث من مارس سنة ١٨٣٠ ) وأخيراً تظهر نفس الفكرة ونفس المصطلح عند أحد فلاسفة الحياة وهو هانز دريش ( ١٨٢١ — ١٩٤١ ) الذى يصفها بأنها الطاقه التى تجعل من الكائن العضوى الحى كلاً أكبر من أجزائه — انظر كتابيه النزعة الحيوية وفلسفة الكائن العضوى .

في الدعوى التي ادعاهها المدرسون على غير أساس من وجود نفوس مجردة كل التجرد من الأجسام . بل أنهم بذلك قد أيدوا رأى أصحاب العقول الضالة فيما زعموه عن فناء النفوس <sup>(١)</sup> .

١٥ - والفعل الذي يصدر عن المبدأ الباطن ويسبب التغير أو الانتقال

---

(١) يرى ديكارت أن خلود النفس يعتمد اعتماداً مطلقاً على إرادة الله ( راجع موجز التأملات ، والترجمة العربية لأستاذنا الدكتور عثمان أمين ، ص ٣٩-٤٣ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، وكذلك رد ديكارت على الاعتراضات الثانية ، ٧ ) وينتقد لينتقز رأى ديكارت على هذا النحو . « إن خلود النفس ، كما قرره ديكارت لا فائدة منه ولا يمكنه أن يمنحنا أى نوع من العزاء لأننا إذا سلمنا بأن النفس جوهر وأن الجواهر لا تفتى ، فإن النفس لن تضيع عندئذ ، إذ لا يضيع شيء في الطبيعة ، ولكن النفس مثلها مثل المادة ، ستتغير من ناحية المظهر ، وكما أن المادة التي جعل منها الإنسان كانت في أوقات أخرى تنتمي للنباتات والحيوانات فإن النفس قد تكون خالدة بنفس الطريقة ، إلا أنها ستمر بتغيرات لا حصر لها وإن تتذكر أجوالها السابقة . ولكن هذا الخلود العاطل من التذكر لا جدوى منه على الإطلاق من الناحية الأخلاقية لأنه لا يتسق مع الثواب والعقاب . فما الفائدة يا سيدى من أن تصبح ملكاً للصين ، بشرط أن ننسى ما كنته ؟ ألن يتساوى هذا مع القول بأن الله في اللحظة التي أفنأك فيها كان على وشك أن يخلق ملكاً في الصين ؟ » ومع ذلك فيمكن أن ننصف ديكارت ونرد على لسانه بهذه العبارات التي جاءت في موجز التأملات . مهما تتغير جميع أعراضها ( أى النفس أو الذهن الإنسانى الذين لا يفرق ديكارت بينهما ) ، ومهما تكن مثلاً تتصور أشياء وتريد وتحس أشياء أخرى ، فإنها هي نفسها لن تتغير مع هذه التغيرات ( أو لن تتغير شيئاً آخر ) ، في حين أن الجسم الإنسانى يصير شيئاً آخر متى تغير شكل أى جزء فيه . ويلزم عن ذلك أن فناء الجسم الإنسانى أمر ممكن ميسور ، أما ذهن الإنسان أو نفسه فباقية بطبيعتها ( راجع أيضاً الفقرة الرابعة من المبادئ ) .

من إدراك إلى آخر يمكن أن يسمى بالنزوع<sup>(١)</sup> . صحيح أن النزوع لا يمكنه على الدوام أن يبالغ الإدراك الذي يتوق لهو غه على نحو تام ، ولكنه يحصل دائماً على شيء منه ويبلغ بذلك إدراكات جديدة .

١٦ - ونحن نجرب بأنفسنا السكثرة في الجوهر البسيط عندما نجد أن أقل فكرة ندرکها تنطوى على تنوع في الموضوع ( المتصور )<sup>(٢)</sup> . وعلى

---

(١) Appétition وراجع المبادئ ، فقرة ( ٢ ) .

(٢) كان بيير بايل Pierre Bayle ( ١٦٤٧ - ١٧٠٦ ) الذي ظل لبيتنز يرأسه منذ سنة ١٦٨٧ ، وقد نقد كتاب « المذهب الجديد » نقداً شديداً ، وقسا على فكرة الاتساق المقدر بوجه خاص ، وذلك في قاموسه التاريخي النقدي Dictionnaire historique et critique الذي ظهر سنة ١٦٩٧ . وقد رد لبيتنز على هذا النقد في شهر يولية سنة ١٦٩٨ في مجلة تاريخ أعمال العلماء Histoire des ouvrages و جعل رده تحت هذا العنوان : « توضيح الصعوبات التي وجدها السيد بايل في المذهب الجديد خاصة باتحاد النفس والجسم » ، ولكن بايل لم يلبث أن كرر نقده في الطبعة الثانية من قاموسه التي ظهرت سنة ١٧٠٢ . وعاد لبيتنز فرد عليها بمجواب على تأملات السيد بايل حول مذهب الاتساق المدبر ، وقد كتب هذا الرد سنة ١٧٠٢ ولكنه لم يذشر إلا سنة ١٧١٢ في « التاريخ النقدي لجمهورية الآداب » ، — ( وهي مجلة شهرية لنقد الكتب أسسها بايل سنة ١٦٨٤ ) — قارن أيضاً مقدمة التيوديسية التي توشك في معظمها أن تكون ردوداً على اعتراضات بايل وأجوبة على حججه وشكوكه حول إمكان التوفيق بين الايمان والعقل . ويبدو أن لبيتنز كان يعتقد بايمان بايل ، كما كان يذكره على الدوام باحترام شديد . يدل على هذا قوله عنه ( التيوديسية ، ١٧٤ ) إنه إنسان لا يفضل له أحد ، ونعنيه له بهذه العبارات الصادقة . « ينبغي أن نؤمن بأن بايل يستضيء الآن بذلك النور الذي حرمت الأرض منه ، إذ كان دائماً رجلاً خيراً طيب السيرة » .

هذا ينبغي على كل من يعترف بأن النفس جوهر بسيط أن يسلم بوجود هذه  
الكثرة في المونادة ، وما كان للسيد بايل أن يجد في هذا أية صعوبة ، كما  
فعل في قاموسه تحت مادة « روراريوس »<sup>(١)</sup> .

١٧ — ولا بد أيضا من الاعتراف بأن الادراك وما يقوقف عليه لا يمكن  
تفسيره بأسباب ( او علل ) آلية ، أى عن طريق الأشكال والحركات . ولو  
تصورنا وجود آلة صنعت بحيث يمكنها أن تفكر ، وتحس ، وتذكر ،  
فان في الامكان تصورها مكبرة بنفس النسب بحيث يكون في وسع الإنسان  
أن يدخل فيها كما يدخل في طاحونة<sup>(٢)</sup> . لو افترضنا هذا لما وجدنا فيها

---

(١) إحدى مواد قاموس بايل نسبة إلى جيروم روراديوس ( ١٤٨٥ —  
١٥٦٦ ) وهو إيطالى ، كان رسوك بابويا فى بلاط فرديناند ملك هنغاريا . وقد بلغ  
من إيمانه بالامبراطور شارل الخامس أنه سمع أحد العلماء يقل من شأنه بالقياس  
إلى أوتو وفرديك بارباروسا فدفعه ذلك إلى كتابة رسالة يؤكد فيها أن البشر  
أقل عقلا من أدنى الحيوانات ؟ ولم تنشر هذه الرسالة إلا بعد كتابتها بمائة سنة ،  
عندما احتدم النقاش حول رأى ديكارت عن نفوس الحيوانات . ويتخذ بايل من  
اسم روراريوس مناسبة لمناقشة هذه المسألة ، وتوجيه نقده الشديد إلى ليبنتز من  
وجهة نظر ديكارتيية . والملاحظ بوجه عام أن بايل يوجه نقده أساسا إلى فكرة  
الاتساق المقدر .

(٢) أى أن معرفتنا لن تتجاوز العلم بالأشكال والحركات ، حتى ولو كنا  
نملك أجهزة مكبرة ( ميكروسكوبات ) من القوة بحيث تكشف لنا بوضوح عن  
دقائق الخلية العصبية والانسجة العصبية فى المخ . ومعنى هذا أن السكان الحى لو  
كان مجرد آلة ، أى مادة خالصة ، لانتقلت إلا من حيث المكان والشكل  
والحجم ، لما أمكن أن نستنتج منه أو نفسر به غير الآلية ، أى هذه الاختلافات  
التي ذكرناها ( راجع رسالة ليبنتز فى التعليق على نفوس الحيوانات التى كتبها  
سنة ١٧١٠ ( Commentatio de Anima Brutorum ) .

عند مشاهدتها من الداخل غير أجزاء تتصادم مع بعضها البعض ، وإن نجد فيها شيئا يمكن أن يفسر لنا إدراكا واحدا . وعلى هذا ينبغي البحث عن هذا الإدراك في الجوهر البسيط لافي المركب ولا في الآلة<sup>(١)</sup> . كذلك ان نجد في الجوهر البسيط غير الإدراكات وما ينجم عنها من تغيرات . ومن هذه وحدها يمكن أن تتكون كل الافعال الباطنة ( الداخلية ) للجواهر البسيطة<sup>(٢)</sup> .

١٨ - يمكن تسمية جميع الجواهر البسيطة ، أو المونادات الخلوقة ، بالانتليخيات ، لأنها تحتوي في ذاتها على كمال معين<sup>(٣)</sup> إنها تنطوي على نوع من الاكتفاء الذاتي<sup>(٤)</sup> يجعلها مصدرا لافعالها الداخلية كما يجعل منها ،

---

(١) المقصود بالآلية أو الميكانيكية هو وجود أجزاء مع أجزاء . وهذا هو الذى يميز جميع المركبات ، لا الجواهر البسيطة ، ومن ثم فلا يمكننا أبدا القول بأن المادة تفكر ، لأن المادة تفترض وجود مبدأ مفكر أو على الأقل مبدأ مدرك .

(٢) راجع المقال في الميتافيزيقا ١٢ ، ورسالة ليبنتز إلى أرنو في ١٦٨٧/٤/٣٠ .

(٣) باليونانية في النص الأصلي ( اخوزى توانتيليس ) أى ذات هدف أو غاية أو كمال .

(٤) فى الاصل باليونانية ( أوتاركييا - راجع الهامش الملحق بالفقرة ١٤ من المونادولوجيا ) ويلاحظ ، للفرقة بين مفهوم ليبنتز للانتليخيا ومفهوم أرسطو لها ، أنها عند الاول جوهر فردى أو طاقة أو قوة تحتوي فى ذاتها على مبدأ التغيرات التى تلحق بها وهو يسميها انتليخيا ، لا لأنها حالة من الكمال المتحقق ، بل لأنها تنطوي - بالقوة على حد تعبير أرسطو - على بذور كمالات لانهايتها تنزع إلى تنميتها وتتمهدها بالرعاية . فهي إذا ليست بحالة نهائية للشئ =

أن جاز هذا التعبير ، آليات غير جسمية<sup>(١)</sup> . ( قارن القبوديسيه ، ٨٧ ) .

١٩ — إذا أردنا أن نطلق كلمة النفس على كل مالمديه إدراكات ونزوع بالمعنى العام الذى شرحته آنفا ، فمن الممكن عندئذ تسمية جميع الجواهر البسيطة أو المونادات الخالوقة نفوسا . ولكن لما كان الأحساس شيئا يزيد على الإدراك البسيط ، فقد يكفى أن نطلق على الجواهر البسيطة التى لا تحتوى على شىء آخر سواء اسم « المونادات » أو « الانتيليمات » بوجه عام ، أما تسمية « النفس » فيصح أن نقصرها على المونادات التى يكون الإدراك فيها أكثر تميزاً كما يكون مصحوبا بالتذكر<sup>(٢)</sup> .

٢٠ — ذلك أننا نجرب فى أنفسنا حالة لا نتذكر معها أى شىء ولا يكون لدينا فى أنماطها أى إدراك مقيم ، مثلما يحدث لنا فى حالة الانهيار أو الاستغراق فى نوم عميق بلا أحلام . فى هذه الحالة لا تختلف النفس اختلافا

---

بل تتضمن اتجاهه أو ميله أو استعدادده ، وهو شىء وسط بين الامكان المحض والفعل الكامل التام عند المدرسين .

(١) أى أنها ليست مجرد آلات ، كذلك التى يصنعها الناس ، بل آلات تتحرك حركة ذاتية أو تحتوى على مبدأ كل أحوالها وسبب كل ما يصيبها من تغير ، بحيث تكون مستقلة بنفسها عن كل ماعداها كأنما لا يوجد فى العالم كله سواها هى والله . بهذا المعنى تكون المونادات وحدها آلات ذاتية الحركة Automata أما الآلات الجسمية فلا يمكن أن توصف بهذا الاستقلال والاكتفاء الذاتى .

(٢) أى أن الذاكرة أو التذكر هى العلامة الدالة على الوعى أو الشعور تميزاً له عن الإدراك غير الواعى أو الإدراك الغامض المختلط . ومن الطريف أن ليستز قد استبق هذه الفكرة فى سن مبكرة ، إذ كتب فى « نظرية الحركة » (١٦٧١) Theoria motus Abstracti أن الجسم ذهن لحظى ( أى مقيد بال لحظة الراهنة ) أى ذهن بلا ذاكرة .

محسوسا عن المونادة البسيطة<sup>(١)</sup> . ولكن لما كانت هذه الحالة لاتدوم ولا تثبت النفس أن تخرج منها فانها ( أى النفس ) شئ يزيد عن ذلك ( أى عن مجرد كونها مونادة ) - « راجع القويديسيه ، ٦٤ » .

٢١ - ولا يقرتب على هذا أن الجوهر البسيط يخلو عندئذ من كل إدراك . أن ذلك تبعاً للأسباب السابقة أمر غير ممكن ، لأنه لا يمكن أن يفسد ، ولا يمكنه أيضا أن يبقى بغير تأثير من نوع ما ، وليس هذا التأثير سوى إدراكه . أما إذا توافر وجود عدد كبير من الإدراكات الصغيرة التي لا يتميز شئ منها تميزاً واضحاً ، فإن الانسان يشمر ( في هذه الحالة ) بالدوار ، كما يحدث له لودار حول نفسه عدة مرات في اتجاه واحد ، فيصاب بإغماء قد يفقده الوعي ويجعله عاجزاً عن التمييز<sup>(٢)</sup> . والموت يمكن أن يضع الحيوانات في مثل هذه الحالة فترة من الزمن<sup>(٣)</sup> .

٢٢ - ولما كانت الحالة الحاضرة للجوهر البسيط هي النتيجة الطبيعية لحاته السابقة ، بحيث أن الحاضر يحمل المسقبل في رحمه<sup>(٤)</sup> . ( قارن القويديسيه ، ٢٦٠ ) .

٢٣ - ولما كان الانسان يفتن الى<sup>(٥)</sup> إدراكه بمجرد أن يفيق من الاغواء

---

(١) أو المونادة العارية أو الخالصة « لاتا » .

(٢) يريد لبيتتنز أننا نظل في أمثال هذه الحالات على علاقة من نوع ما بالعالم الخارجى ، وإن يكن الوعي أو الشعور قد تضائل إلى الحد الذى يتعذر إدراكه .

(٣) راجع الفقرة « ١٤ » من المونادولوجيا .

(٤) راجع أيضا الفقرتين « ٧٨ » و « ٧٩ » .

(٥) أو ينتبه إليه ويشمر به .

فلا بد أن مثل هذا الإدراك قد وجد لديه قبل ذلك مباشرة ، وإن لم يكن عندئذ على وعى به . لأن الإدراك لا يمكن أن ينشأ نشأة طبيعية إلا عن إدراك آخر ، شأنه في هذا شأن الحركة التي لا يمكن أن تنشأ نشأة طبيعية إلا عن حركة<sup>(١)</sup> ، ( قارن القيوديسية ، ٤٠١ — ٤٠٣ ) .

٢٤ — نقيين من هذا أننا سندكون دائماً في حالة الاغماء إذا خلت إدراكاتنا من التمييز<sup>(٢)</sup> والقطوع إلى مرتبة أسمى . والواقع أن هذه هي حالة المونادات المتناهية في البساطة .

٢٥ — كذلك نرى أن الطبيعة قد أعطت الحيوانات إدراكات مميزة عندما نقيين أنها قد كفلت لها أعضاء تجمع عدداً كبيراً من الأشعة أو الذبذبات الهوائية ، لكي تجعلها بهذا التوحيد أكثر فاعلية . وشبهه بهذا ما يحدث عند الشم والذوق واللمس ، واعلم أن يكون شبيهها بما يحدث مع عدد آخر من الاحساسات التي نجعلها . وسوف أفسر بعد قليل<sup>(٣)</sup> كيف تصور الأحداث التي تجرى في النفس ما يقيم في الأعضاء .

٢٦ — أن الذاكرة تمد النفس بنوع من الاستنتاج<sup>(٤)</sup> الذي يحاكي العقل

---

(١) لا بد أن يكون لكل إدراك سبب . وهذا السبب لا يمكن إلا أن يكون إدراكاً آخر ، وذلك وفقاً لمبدأ السبب الكافي ( انظر الفقرة ١٧ ) وإذا لم يأت الإدراك السابق قبل الإدراك اللاحق مباشرة ، فلا بد أن يكون ثمة انقطاع في وجود النفس الذي يتميز بالاتصال .

(٢) التمييز في الحالين بمعنى الامتياز والتفوق وعلو المنزلة .

(٣) انظر الفقرتين ٦١ و ٦٢ من المورادولوجيا .

(٤) الكلمة الأصلية هي Consecution أى التسايع أو التعاقب ، والمراد =

وان وجب تمييزه منه . فنحن نرى الحيوانات إذا أدركت شيئا ذا أثر بالغ عليها وكانت قد أدركته قبل ذلك ادراكا مشابها - نراها بفضل الذاكرة تتوقع ما ارتبط من قبل بهذا الإدراك وتحس بمشاعر شبيهة بتلك التي أحست بها . فاذا لوحنا مثلا بالعصا للكلاب تذكرت الألم الذي سببته لها وأخذت تنبح ولاذت بالفرار . ( قارن القيوديسيه ، المقدمة ، ٦٥ ) .

٢٧ — والتصور الحسى القوى الذى يثيرها ويحركها اما ان يأتى من حجم الادراكات السابقة أو من عددها . لأن الانطباع القوى غالبا ما يؤدى دفعة واحدة إلى نفس الأثر الذى تؤدى إليه عادة طويلة (١) أو ادراكات كثيرة متكررة ومتوسطة القوة (٢) .

٢٨ — وبسلك الناس سلوك الحيوانات حين لا تتم الاستنتاجات من ادراكاتهم إلا عن طريق مبدأ الذاكرة ؛ وهم فى هذا يشبهون الأطباء التجريبيين (٣) الذين يملكون القدرة على الممارسة العملية البسيطة ويفقهون

---

== بها هو الاستنتاج الذى يصل إليه الحيوان بناء على سلسلة سابقة من المدركات والحوادث بحيث إذا عرض له واحد منها استدل منه على حادث آخر ارتبط به من قبل . ويظهر ان لينتز يشير إلى ما يعرف اليوم بتداعى المعانى ، الذى عقد له فصلا من كتابه « المقالات الجديدة » ( الذى خصصه للرد على كتاب لوك مقال عن العقل الإنسانى ) . ومن يدرى ؟ لعله بهذه اللامحة العبقرية أن يكون قد استبق ما يقوله بأفلوف وأتباعه عن التشريط أو الفعل المنعكس الشرطى .

(١) هكذا فى الأصل، والمراد بالطبع هو العادة الراسخة التى تتمكن من الإنسان على المدى الطويل .

(٢) أو إدراكات عادية .

(٣) كلمة الطبيب الممارس من الكلمات المألوفة اليوم فى حياتنا . وليكنه ==

إلى النظرية . ونحن في ثلاثة أرباع تصرفاتنا لا نزيد عن كوننا تجريبيين .  
فاذا توقعنا مثلا ان يطلع النهار في صباح الغد ، كنا في مسلكنا هذا تجريبيين ،  
لأن هذا هو الذى حدث حتى الآن . أما عالم الفلك فهو وحده الذى يحكم  
العقل في هذا الأمر <sup>(١)</sup> .

٢٩ - بيد أن المعرفة بالحقائق الضرورية والأبدية هي التي تميزنا عن  
الحيوانات الخالصة ، وبها نحصل على العقل ونقزود بالعلوم ، وذلك حين  
ترفعنا إلى المعرفة بأنفسنا وبالله <sup>(٢)</sup> . وهذا هو ما يسمى فينا بالفس العاقل

---

== يختلف اختلافا تاما عما يقصده لينتز بالأطباء التجريبيين . فقد كان من  
المعروف حتى عهد جالينوس ( حوالى ١٥٠ بعد الميلاد ) ان هناك طبقات أو  
طوائف عديدة من الأطباء . وكانت إحداها هي طائفة الأطباء التجريبيين الذين  
يعتمدون في تشخيصهم للمرض على الخبرة وملاحظة الأسباب والمرئية ، والملاوسة  
التي أدت للإصابة . ثم ساءت سمعة هذه الطائفة في العصور التالية ، فأطلقت على  
الأطباء الذين يعتمدون على الخبرة الشخصية والتقاليد الموروثة ويحتقرون الدراسة  
النظرية أو يجهلونها ، وهم أشبه « بحلاقى الصحة » الذين بدأوا ينقرضون حتى من  
الآرياف !

(١) أو يقيم حكمه على أسباب عقلية - راجع أيضا مقدمة المقالات الجديدة .

(٢) الحقائق الضرورية والأبدية هي المبادئ الأولى للمعرفة العقلية ، وهي  
مفطورة فينا ، بل تقوم عليها طبيعتنا الإنسانية ، كما تقوم عليها طبيعة العالم الذى  
تمثله بحكم ماهيتنا . ولهذا كانت المعرفة بهذه الحقائق مرادفة للمعرفة بأنفسنا ،  
وبالله الذى هو العلة الغائية الأخيرة لجميع الكائنات . راجع المقالات الجديدة ،  
الفصلين الأول والرابع اللذين يشيران فيهما إلى ان هذه الحقائق فطرية فينا ويستشهد ==

### أو العقل (١) .

٣٠ - وعن طريق المعرفة بالحقائق الضرورية ومن خلال تجريداتها نرتفع كذلك إلى الأفعال المنعكسة (٢) [ التأملية ] التي توصلنا إلى فكرة الأنا (٣) وتجعلنا نعتبر أن هذا أو ذاك موجود فيما . فنحن إذ نفكر على هذا النحو في أنفسنا ، نوجه أفكارنا في نفس الوقت إلى الوجود والجوهر ، والبسيط والمركب ، واللامادى والله نفسه ، حيث نتصور أن ما هو محدود فيما يوجد فيه بغير حدود. هذه الأفعال المنعكسة [ أو التأملية ] تمثل الموضوعات الأساسية لمعرفة العقلية [ قارن التهوديسية ، الافتتاحية ٤ أ ] (٤) .

---

= بحاوره د مينو ، المعروفة لأفلاطون حيث يثبت سقراط ان المعرفة تذكر ويستخرج بأسئلته وحدها المعرفة الرياضية من نفس العبد الصغير د مينو . راجع كذلك مبادئ الطبيعة والفضل الإلهي ، الفقرة الخامسة .

(١) الكلمة الأصلية هي esprit وقد ترجمها المترجم الألماني بالروح Geist [ التي تعني جماع القوى العقلية ] والانجليزي بالعقل أو الذهن Mind ، ورأيت أن العقل هنا أقرب إلى السياق .

(٢) أو الأفعال التأملية التي تنعكس فيها على أنفسنا ونأمل ما يجري فيها من أحوال .

(٣) حرفيا : تجعلنا نفكر فيما يسمى د بالانا .

(٤) راجع أيضا رسالة لبييتز التي وجهها لآرنو في ١٦٨٦/١٢/٨ - والملاحظ من هذه الفقرة ان الشعور أو الوعي يصبح شعورا أو وعيا بالذات عندما نتحقق من طبيعة الحقائق الابدية الخالدة ، أى عندما نعرف انها هي المبادئ الفطرية التي يقوم عليها وجودنا ووجود العالم كله . ودائما ما يكون الجوهر نوعا من النفس أو الروح ، لأنه لا بد ان يكون مماثلا لما نجد في أنفسنا =

٣١ - تقوم معرفتنا العقلية على مبدئين : كبيرين مبدأ عدم التناقض ، وبفضله نحكم على كل ما ينطوى على تناقض ، وبالصدق على ما يضاد الكذب أو يناقضه . ( قارن اليهودسية ٤٤ و ١٦٩ ) .

٣٢ - كما تقوم على مبدأ السبب الكافي ، وبه نسلم بأنه لا يمكن التثبت من صدق واقعة أو وجودها ولا التثبت من صحة عبارة بغير أن يكون ثمة سبب كاف يجعلها على هذا النحو دون غيره <sup>(١)</sup> وإن تعذر علينا في أغلب الأحوال أن نتوصل إلى معرفة هذه الأسباب . ( قارن اليهودسية ٤٤ و ١٩٦ ) .

---

= يقول لينتز في المقالات الجديدة [ ١ و ٢١ ] « ان المعرفة بطبيعة الأشياء لا تكون في أغلب الأحوال إلا معرفة بطبيعة عقلنا وبذلك الأفكار النظرية التي لا حاجة بنا للبحث عنها خارجها » . كما يقول أيضا في نفس الكتاب ( ٢٣ ) « إن الأفكار العقلية أو أفكار التأمل مستمدة من عقلنا ، وانه ليشوقني جداً أن أعرف كيف كان يتسنى لنا ان نحصل على فكرة الوجود لو لم تكن نحن موجودات وبذلك نلبس الوجود في أنفسنا » .

(١) كان لينتز في كتاباته المبكرة يسمي هذا المبدأ باسم مبدأ التحديد أو التعمين ، ويقصد به المبدأ الذي يحدد وجود هذا الشيء أو ذلك من بين عدد من الاحتمالات أو الامكانيات التي تنطوى على تناقض وهو يستخدم أحيانا « مبدأ التلازم » أو التجانس كمرادف لمبدأ السبب الكافي . ومعنى هذا أنه يشير ضمنا إلى أن السبب الكافي لشيء ما يوجد دائما في علاقاته بغيره من الأشياء وفي مكانه من النظام العام . ومن الواضح أن مبدأ السبب الكافي شبيه عنده بمبدأ السبب الغائي أو العلة الغائية . ولعله أن يكون قد تأثر بالرياضيات في استخدام كلمة « الكافي » .

٣٣ — هناك نوعان من الحقائق : حقائق العقل وحقائق الواقع . حقائق العقل ضرورية ، وعكسها مستحيل ، وحقائق الواقع عرضية ، وعكسها ممكن . فإذا كانت إحدى الحقائق ضرورية ، أمكن عن طريق التحليل أن نجد سببها ، وذلك بتحليلها إلى أفكار وحقائق أبسط ، إلى أن نصل إلى الحقائق الأصلية ( قارن التيوديسيه ١٧٠ و١٧٤ و١٨٩ و٢٨٠ - ٢٨٢ و٣٦٧ وكذلك موجز الاعتراضات ، الاعتراض الثالث )<sup>(١)</sup> .

٣٤ - بهذه الطريقة يرد الرياضيون المبادئ النظرية والقواعد العملية بواسطة التحليل إلى تعريفات ومسميات ومصادرات .

٣٥ - بهذا نصل آخر الأمر إلى أفكار بسيطة لا يمكن تعريفها<sup>(٢)</sup> ، كما نصل إلى مسميات ومصادرات أو باختصار إلى مبادئ أولية لا يمكن البرهنة عليها ولا تحتاج أيضاً إلى برهان . وهذه هي القضايا الذاتية التي ينطوى عكسها على تناقض صريح .

٣٦ - ولكن يجب أيضاً أن يوجد السبب الكافي في الحقائق العرضية<sup>(٣)</sup> أو حقائق الواقع ، أى في تسلسل وسياق الحقاوكلات<sup>(٤)</sup> حيث يمكن أن

---

(١) راجع أيضاً المقال في الميتافيزيقا ، ١٣ .

(٢) تعريف الفكرة عند ليبنتز هو بيان عناصرها التي يكشف عنها التحليل الكامل . راجع : التأملات عن المعرفة والحقيقة والأفكار ، ( ١١٨٤ ) .

(٣) أى الحقائق الحادثة أو الحادثات .

(٤) يوجد السبب الكافي للحقائق العقلية في الحقائق البديهية أو الحقائق الذاتية التي يمكن أن ترد إليها بالتحليل . أما حقائق الواقع فيوجد سببها الكافي في الله وحده .

يتمضى التحليل إلى أسباب تفصيلية لاحد لها ، نظراً للتنوع الهائل في الأشياء الطبيعية وقسمة الأجسام إلى مالا نهاية . أن هناك عددا لا نهاية له من الأشكال والحركات الحاضرة والماضية، التي تدخل في تكوين العلة الفاعلة لما أكتبه الآن<sup>(١)</sup> ، كما أن هناك عدداً لا نهاية له من الدوافع والاستعدادات الصغيرة التي خبرتها نفسى في الماضى أو في الحاضرة ودخلت في تكوين علقه الغائية<sup>(٢)</sup> . ، (قارن القيد بسميه ٢٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٩ و ٥٢ و ١٢١ و ١٢٢ و ٣٣٧ و ٣٤٠ و ٣٤٤) .

٣٧ - ولما كانت كل هذه التفصيلات تحتوى من جانبها على أمور عرضية (حادثة) أخرى أسبق منها وأشد تفصيلاً ، كانت هذه تحتاج بدورها إلى تحليل مشابه لتبريرها ، فاننا بهذه الطريقة لن نحزر تقدماً . لهذا يهتكم أن يوجد السبب الكافى أو السبب الأخير خارج سلسلة أو مجموع سلاسل الأشياء العرضية (الحادثة) كل على حدة ، مهما بلغت هذه السلسلة حداً لا نهاية له<sup>(٣)</sup> .

---

(١) أو لكتابى أو مكتوبى هذا . .

(٢) تثير هذه الفقرة مشكلة العلاقة بين المبادئ المختلفة عند لينتز والصعوبات التي تكتنفها من جهات عديدة . ففى توضيح كيف تتحد العلل الفاعلة والغائية لتؤلف العلة الكافية أو السبب الكافى ، إذ لا يكفى أحدهما لتحقيق هذا الغرض . بيد أن لينتز يوضح أيضاً فى مواضع أخرى أن العلل الفاعلة تعتمد على العلل الغائية . أضف إلى هذا أنه يوحد عادة بين العلل الفاعلة والعلل الآلية أو الميكانيكية التي تقوم على مبدأ عدم التناقض . راجع أيضاً الفقرة (٧٩) من المونادولوجيا .

(٣) تسيير هذه الحججة فى نفس الطريق الذى سار فيه أرسطو لاثبات وجود

(م ١٠ - المونادولوجيا)

٣٨ - وهكذا ينبغي أن توجد العملة الأخيرة للأشياء في جوهر ضروري،  
يحتوى على تفاصيل التغيرات على نحو سام<sup>(١)</sup> أشبه بأن يكون مصدراً  
لها : وهذا الجوهر هو الذى ندعوه الله ( قارن التهوديسية ٧ ) .

٣٩ - ولما كان هذا الجوهر هو العملة الكافية لكل هذه التفاصيل  
الخاصة ، المترابطة من ناحية أو ثنى ارتباطاً ، فليس هناك غير الله واحد<sup>(٢)</sup>  
وهذا الاله كاف .

٤٠ - ويمكننا أيضاً أن نحكم بأن هذا الجوهر الأسمى ، الذى هو  
فريد وكلى وضرورى - إذ ليس هناك شيء مما يقع خارجه لا يعتمد في

---

= " محرك أول " ، إذا اعتمد على المبدأ القائل " بضرورة التوقف " ، في تسلسل  
الأسباب والشروط . راجع كتابي ( الكسبي ) - ( ٦ ، و ٣٣٧ ب ٣ )  
والثيتا ( ٥ و ٢٥٦ أ ١٣ ) من كتاب الطبيعة . وقارن كذلك نقد العقل  
الخالص لكانت ، باب الديكالكتيك الترسند تتالى ، للكتاب الثانى ، الفصلين  
الثانى والثالث .

(١) على نحو سام أو رفيع *eminement* في مقابل على نحو شكلى أو صورى  
*formelle* والاصطلاحان مدرسيان استخدمهما ديكرارت .

(٢) هذه هى صيغة الدليل الكونى أو الكوزمولوجى عند ليبنتز ، فجميع  
الأشياء الجزئية مرتبطة ببعضها البعض داخل نظام واحد يتضمن مبدأ واحداً ،  
وجوهرأ واحداً ضرورياً ، وإلها واحداً ولا يسير الدليل من النظام الموجود  
فى العالم إلى العقل المدبر له ، بل يستمد قوته من أن الشكل يكون نظاماً واحداً  
يدل على وجود سبب كافٍ أخير لهذا الشكل . ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت  
هناك أنظمة مختلفة تدخل فى صراع مع بعضها البعض ، إذ يفترض كل منها مبدأ  
أو إلهاً خاصاً به ، وهو محال .

وجوده عليه ، كما أنه نتيجة بسيطة لإمكان وجوده <sup>(١)</sup> - يستحيل أن تكون له حدود ولا بد أن يحتوى على أقصى واقع ممكن <sup>(٢)</sup> .

٤١ - يترتب على هذا أن الله كامل كالأطلقا ، إذ ليس الكمال إلا عظم الواقع الإيجابي من حيث هو كذلك ، ( وهو الذى نحصل عليه ) عندما نضرب صفحا عن حدود أو قيود الأشياء التى لديها مثل هذه الحدود والقيود . وحيث لا تكون ثمة حدود ، أعنى فى الله ، يكون الكمال لا مقناهيا باطلاق . ( قارن القيود بسية ٢٢ ، والمقدمة ١٤ ) .

٤٢ - يترتب على هذا أيضاً أن المخلوقات تعتمد كآلها من تأثير الله ، أما وجوه النقص فيها فترجم إلى طبيعتها الخاصة التى يعجزها أن تكون بغير حدود ، لأن هذا هو أساس اختلافها عن الله <sup>(٣)</sup> .

---

(١) حرفيا : نتيجة بسيطة أو مجرد نتيجة للوجود الممكن - ومعظم الترجمات تقول : وهذا الجوهر سلسلة بسيطة للوجود الممكن ، ولكن السياق يقتضى الترجمة التى اخترناها حتى يستقيم الدليل الأنطولوجى .

(٢) لما كان الله هو السبب الكافى لكل شىء ، فليس هناك شىء مستقل عنه أو لا يعتمد فى وجوده عليه . ولو حددت إمكانيته على أى صورة ، فلا بد أن يأتى ذلك من إمكانية أخرى مستقلة عنه وتقع خارجه . يلزم عن هذا أن إمكانيته لا يمكن أن يحدها شىء . والامكانية غير المحدودة تعنى الواقع والوجود غير المحدود ، إذ أن ما هو ممكن لا بد أن يكون واقعا ، إلا إذا كان هناك ممكن آخر يحدده .

(٣) يلاحظ أن طبعة إردمان ( برلين ١٨٤٠ ) لأعمال ليبنتز تسقط عبارة تالية تضيفها طبعة جرهارت ( ١٨٧٥ - ١٨٩٠ فى الهامش ) بينما تسقطها الطبعات الأخرى التى بين أيدينا باستثناء طبعة دلاتا ، الانجليزية وطبعة بول لير ( سلسلة الكلاسيكيين للجميع ، العدد ١٤١ ، مكتبة آتبييه ) . ويبدو أن ليبنتز =

٤٣ - من الحق أيضا أن الله ليس هو مصدر الوجودات <sup>(١)</sup> فحسب، بل هو كذلك مصدر الماهيات، بقدر ما تكون واقعية، أو هو بمعنى آخر مصدر <sup>(٢)</sup> ما يحتوى عليه الامكان من واقع <sup>(٣)</sup>. ذلك أن الذهن

---

== قد أضاف العبارة عند مراجعة النسخة الأولى من المونادولوجيا : ويلاحظ هذا النقص الاصل للمخلوقات في القصور الذاتي الطبيعي للأجسام .  
( اليهوديسية ، ٢٠ و ٢٧ - ٣٠ و ١٥٣ و ١٦٧ و ٢٧٧ وما بعدها ) .

(١) في الاصل بصيغة الجمع existences .

(٢) source ويمكن ترجمتها أيضا بالاصل .

(٣) ليس الله هو مصدر كل وجود واقعي أو فعلي فحسب، بل هو كذلك مصدر كل وجود ممكن، أو كل ما ينزع للوجود . وما يحتوى عليه الامكان من واقع هو نزوعه أو ميله لأن يوجد . ويلاحظ أن الماهيات، أو الممكنات، مستقلة بمعنى من المعاني عن الله، إنه لا يخلقها كاهيات، وإنما هي موضوعات ذهنه، ولا يحدد طبيعتها إلا مبدأ عدم التناقض . ولكنها بمعنى آخر تعتمد في وجودها على الله، إذ تعبر بصورة أو بأخرى عن طبيعته وحرية، على أن حرية تقتصر على اختيار تلك الماهيات التي سيتحقق وجودها بالفعل، كما أن هذا الاختيار الذي تحدده حكمته وخيريته يضع طبيعة الماهيات نفسها في الاعتبار .

وهكذا يمكن القول مع النص بأنه « بغيره لن يوجد شيء » ( لأن وجود الأشياء مترتب على إرادته واختياره ) ، « وبغيره لن يمكن وجود شيء » ( لأن كل ما هو ممكن إنما هو موضوع ذهنه ) ولما كان الذهن الالهي كاملا أى خالصا من كل غموض أو اختلاط يشوب إدراكه - فلا بد أن يكون موضوعه هو الماهية الأخيرة للأشياء، أى هو ماهية الله نفسه : ولها نجد ليمتزن يوحد في الفقرة التالية بين الماهيات أو الممكنات وبين الحقائق الابدية .

الإلهى هو منطقة الحقائق الأبدية، أو الأفكار التى يقوقف عليها وجودها<sup>(١)</sup> وبغير وجوده ان يكون فى الامكانيات واقع ، وان يكون فيها شىء موجود فحسب ، بل ان يكون فيها كذلك شىء ممكن . ( قارن التيوديسيه ٢٠ ) .  
٤٤ - لأنه إن كان ثمة واقع فى الماهيات أو الإمكانيات أو حتى فى الحقائق الأبدية ، فلا بد أن يقوم سبب هذا الواقع على شىء موجود وفعلى ، وبالتالى على وجود السكائن الضرورى الذى يتضمن ماهيته وجوده ، والذى يكفيه أن يكون ممكنا لىكون واقعيا . ( قارن التيوديسيه ١٨٤ و ١٨٩ و ٣٣٥ ) .

٤٥ - وهكذا يفرد الله ( أو السكائن الضرورى ) بهذه الميزة ، وهى أنه يتحتم بالضرورة أن يوجد إذا كان وجوده ممكنا . ولما لم يكن هناك شىء يحول دون إمكان ( وجود ) ما لا يتضمن حدودا ولا نفيا ولا يحتوى تبعا لذلك على أى تناقض ، فإن هذا وحده<sup>(٢)</sup> يكفى لمعرفة وجود الله معرفة قبلية . وقد أثبتنا وجوده عن طريق واقعية الحقائق الأبدية . ثم أثبتناه كذلك<sup>(٣)</sup> بطريقة بعدية من وجود السكائنات الحادثة التى لا يمكن أن يقوم سببها الأخير أو سببها السكافى إلا فى السكائن الضرورى الذى يتضمن فى ذاته سبب وجوده .

(١) يربط ليبنتز هذا الجزء من مذهبه بعالم المثل عند أفلاطون . يقول فى رسالته إلى هانشيوم ( ٧٠٧ ) Epistola ad Hanschium إن من أروع ما ذهب إليه أفلاطون القول بأن فى الذهن الالهى عالما معقولا ، وانا أميل إلى تسميته منطقة الأفكار .

(٢) أى إمكان وجوده .

(٣) راجع الفقرات السابقة من ٣٦ إلى ٣٩ .

٤٦ — ولكن لا يصح أن نقوهم — كما فعل البعض — أن الحقائق الأبدية — نظراً لاعتمادها على الله — حقائق تعسفية أو متوقفة على إرادته ، كما سلم بذلك ديكارت<sup>(١)</sup> ومن بعده السيد بواريه<sup>(٢)</sup> — إذ لا يصدق هذا إلا على الحقائق الحادثة التي تقوم على مبدأ الملازمة أو اختيار الإصلاح ، في حين أن الحقائق الضرورية تعتمد على الذهن الالهي وحده وهي موضوعه الباطن . ( قارن التيوديسييه ، ١٥٠ - ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٣٣٥ ، ٣٥١ ، ٣٨٠ ) .

(١) يقول ديسكارت في رسالة له إلى الأب ميرسين Mersenne ( طبعة كوزان ، المجلد ٦ ، ص ١٠٩ ) : « أن الحقائق الميتافيزيقية التي تصنفها بأنها أبدية إنما هي حقائق قررهما الله وتعتمد عليه اعتماداً تاماً ، شأنها شأن جميع المخلوقات . ذلك لأنك لو قلت بأن هذه الحقائق مستقلة عن الله لكنت تتكلم عنه كما لو كان « جويتر » أو « زحل » ولاخضعته لاستكس ( نهر في الجحيم أو العالم السفلي في أساطير الاغريق ) أو ربات القدر ... إن الله قد وضع هذه القوانين في الطبيعة كما يضع أحد الملاك قوانين مملكته . » كما يقول في موضع آخر من نفس الرسالة ( ص ١٠٣ ) : « لا نستطيع أن نزعّم ، بغير أن نقع في خطيئة التجديف ، أن حقيقة أى شيء تسبق علم الله به ، لأن إرادة الله وعلمه شيء واحد ، — ومن المعروف أن ديكارت قد جعل صدق الحقائق الرياضية أمراً متوقفاً على إرادة الله وحرية ، فقد كان الله حراً في أن يجعل قضية كهذه : « زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين » قضية كاذبة .

(٢) بيير بواريه Pierre Poiret ( ١٦٤٦ — ١٧١٩ ) وزير وفيلسوف ومتصوف فرنسي ، ولد بمدينة ميتس ومات في رينسبورج بالقرب من مدينة ليندن . عمل في دوقية « تسفاي بروكن » في منطقة الراين ، وكانت إحدى المقاطعات الألمانية التابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة . كان في بداية حياته من أنصار ديكارت ثم ابتعد عن مذهبه المعلق على كل البعد ومال إلى التصوف =

٤٧ — هكذا يكون الله وحده هو الوحدة المبدئية أو الجوهر الأصلي البسيط ؛ وكل المونادات المخلوقة أو المشتقة من إبداعه<sup>(١)</sup>، وتنشأ إن جاز هذا القول ، من لحظة لأخرى بفضل ومضات الهمية<sup>(٢)</sup> ، محدودة بالقدرة على الفائق (أو الاستقبال) من جانب المخلوق الذي هو محدود بحسب ماهيته .  
(قارن التيموديسييه ٣٨٢ — ٣٩١ و ٣٩٨ و ٣٩٥) .

---

وتعمق فيه متأثرا بالمتصوف الألماني يعقوب بومة (١٥٧٥ — ١٦٢٤) ، والمتصوف الهولندية أنطوانيث بورينيون التي كتب سيرة حياتها ونشر آراءها . . . وقد صدر كتابه الأساسي الذي وضعه باللاتينية سنة ١١٧٧ وعنوانه د تأملات عقلية عن الله والنفس والنشر ( وقد هاجمه بايل هجوما شديدا .. ) .  
(١) حرفيا : هي منتجاته أو من إنتاجه Productions وقد فضلت عليها هذا التصرف البسيط .

(٢) ومضات أو فيوضات مفاجئة ، على نحو ما يقول ليبنتز في موضع آخر ( ذكره روبرت لاتا ، ص ٢٤٣ ، هامش ٧٥ عن طبعة جرهارت ، مجلد ٤ ، ص ٥٥٣ ) د إن الله هو المركز الأصلي الذي تفيض عنه ( أو تصدر عنه ) سائر الموجودات ، . والواقع أن علاقة الله بالمونادات تمثل نقطة أساسية في مذهب ليبنتز ، فهو يحاول دائما أن يحافظ على تفرد المونادات ووحدتها مع تأكيد اتحادها بالله . ولهذا يبدو أنه يستخدم كلمة الومضة كحد وسط بين الخلق والفيض ، إذ قد يعنى الخلق نوعا من الانفصال التام بين الله وسائر المونادات ، كما يعنى الفيض نوعا من الهوية السكاملة بينهما — ولهذا فإن استخدام كلمة الومضات يعنى أن المونادة إمكانية تنزع باستمرار إلى التحقق ولا تستغنى عن معرفة الله وإرادته واختياره لتجربتها من تأثيرا الإمكانات المضادة . ولهذا وجب التمييز بين هذه الومضات المستمرة وبين فسكرة الخلق المتصل ، عند ديكارت التي تعنى عنده تجدد الخلق في كل لحظة .

٤٨ — وفي الله تسكن القوة التي هي مصدر كل شيء ؛ وفيه كذلك المعرفة التي تحتوي على الأفكار المتنوعة ، وأخيرا فإن فيه الإرادة التي هي علامة التغيرات أو الابتداعات التي تتم وفقا لمبدأ الأصلح<sup>(١)</sup> . ( التيوديسية ٧ و ١٤٩ و ١٥٠ ) . وهذا هو الذي يطابق الموضوع أو الأساس ، وملكمة الإدراك وملكمة النزوع لدى المونادات المخلوقة<sup>(٢)</sup> . ولكن هذه الصفات تسكون في الله لا متناهية أو كاملة بصورة مطلقة ، بينما تسكون في المونادات المخلوقة أو الانتياليخييات ( أو الكائنات الحاضرة على السكال<sup>(٣)</sup> Perfectihabien كما ترجم هرمولاولوس بارباروس<sup>(٤)</sup> هذه الكلمة ) مجرد

---

(١) يشير ليننتز في التيوديسيه ( ١٥٠ ) إلى العلاقة بين صفات الله وبين مذهب التثليث المسيحي ، فالقوة تشير إلى الآب ، والحكمة للكلمة والإرادة أو الحب للروح القدس .

(٢) يؤكد ليننتز هنا رأيه في أن المونادة في جوهرها قوة أو طاقة أو فاعلية تعبر عن نفسها بالإدراك والنزوع . ولا حاجة بنا لافتراض أن الموضوع أو الأساس الذي يتحدث عنه هنا شيء مستقل بذاته عن هاتين الملكتين .

(٣) من الكلمتين اللاتينيتين Perfecte كال و habeo فعل الملك ، وتقابل الكلمة اليونانية ، راجع هامش الفقرة ١٤ .

(٤) هرمولاولوس بارباروس Hermolaus Barbarus أو على الأصح Ermolao Barbaro ، ١٤٥٤ — ١٤٩٣ ، عالم إيطالي وأحد ممثلي النزعة الانسانية وحركة بعث النصوص الكلاسيكية . ولد في مدينة البندقية وعمل أستاذا للفلسفة بجامعة بادوا . عرف بترجماته لأرسطو وشروح ثامسطيوس عليها ، وبذل جهودا طيبة لعرض مذهب أرسطو الأصيل قبل أن يحرفه المدرسون . ويرى عنه أنه لجأ للسحر والتعاوين ليحضر روح ابليس ويسألها عن معنى كلمة « اتليخيا » =

تقليدات لهذه الصفات ، يختلف حفظها من التوفيق باختلاف حفظها من السكال ، ( اليهوديسية ، ٧ و ١٤٩ و ١٥٠ و ٨٧ ) .

٤٩ - يقال عن المخلوق إنه يفعل في اتجاه الخارج<sup>(١)</sup> ، بقدر ما يكون فيه من السكال ؛ ويقال عن مخلوق آخر إنه يفعل بقدر ما يكون غير كامل . ومن ثم ينسب الفعل إلى المونادة بقدر ما تكون إدراكاتها متميزة ، والانفعال بقدر ما تكون إدراكاتها مختلطة ( أو غير متميزة )<sup>(٢)</sup> .

٥٠ - ويكون المخلوق أكمل من غيره إذا وجدنا فيه بصورة قبلية علة<sup>(٣)</sup> ما يجرى في مخلوق آخر ، بهذا المعنى يقال إنه يؤثر على المخلوق الآخر

---

== التي يبدو أنها حيرته وأرقت لباله ١ .. وقد روى ليبنتز هذه القصة في كتابه عن العدل الإلهي ( اليهوديسية ، ٨٧ ) .

(١) ليس للمونادة بطبيعة الحال فعل في اتجاه الخارج ، وإنما هو تعبير أراد به ليبنتز أن يفسر ما نقصده عندما نتحدث عن الفعل الخارجى ، على نحو ما يفسر الفلاسفة عندما تتكلم عن الشروق والغروب ، على الرغم من أن الشمس لا تشرق ولا تغرب !

(٢) Confuses هي الإدراكات غير الواضحة أو الغامضة المختلطة ، وقد أثبت المعنى الأصلي وأضفت إليه المعنى الذى وضعه المترجم الألماني بين قوسين . وإن شئت مزيدا من التفصيل عن الفرق بين الإدراكات المتميزة والإدراكات الغامضة أو غير المتميز فأرجع إلى أعمال ليبنتز التالية : مقال فى الميتافيزيقا ٢٤ ، والمقالات الجديدة ، المقدمة ، وتأملات عن المعرفة الحقيقية والأفكار .

(٣) أو سببه ومبرره ، وبهذا يكون تغير الحدث أو علته هو سببه الحقيقي . وهذا يرتبط برأى ليبنتز فى أن وجود الشيء إنما يأتى من تحرير طاقاته أو فاعليته ، وأن المونادات تنزع للوجود بمقدار ما تحوزه من كمال ، أى بتعبير ليبنتز ==

٥١ — يبد أنه لا يوجد بالنسبة للجواهر البسيطة سوى تأثير مثالي لاحدى المونادات على الأخرى ، وهو تأثير لا يصبح فعالا إلا بتدخل من الله ، لأن المونادة تطلب بحق من أفكار الله أن يكون ( أى الله ) قد وضعها في اعتباره عند قيامه في مبدأ الأمر بتنظيم المونادات الأخرى . لأنه لما كان من المتعذر على المونادة المخلوقة أن تؤثر تأثيرا فيزيائيا على داخل المونادة الأخرى ، فلا يمكن بغير هذه الوسيلة أن تعتمد أحدها على الأخرى قارن التهوديسية ٥٤ و ٥٥ و ٦٦ و ٦٧ و ٢٠١ و راجع أيضا موجز الاعتراضات ، الاعتراض الثالث (١) .

٥٢ — وهكذا يتم تبادل الفعل والانفعال بين المخلوقات . فعندما يوازن (٢) الله بين جوهرين بسيطين نجد في كل منهما أسبابا تلزمه بأن يلائم (٣)

---

= بمقدار تميز ادراكاتها . هذا والعلة والمعلول أو السبب والمسبب نسيان ، والمونادة المخلوقة تجمع بينهما في آن واحد . والله وحده هو السبب المحض أو الفعل الخالص ( actus purus ) ويمكن أن نضع هذا في المعادلة التالية : العلة ( السبب ) = فاعلية نسبية = تميز نسبي للادراك .

(١) راجع كذلك المقال عن الميتافيزيقا ٢٢ و ٣٣ ورسالة ليستنز الى أرنو في شهر يونية سنة ١٦٨٦ — لاحظ أن هذه الفقرة تشير الى مبدأ الانساق المدبر الذى شتم عرض له في الفقرتين التاليتين ٨٠ و ٨١ وهو انساق أو تجانس كامن في طبيعة الأشياء ، سابق على خلقها ، أى أنه ليس تجانسا مخلوقا على أى صورة من الصور ، لأن تحققه في عالم الواقع هو سبب اختيار الله لهذا العالم دون غيره .

(٢) أو يقارن .

(٣) ليس هناك جوهران بسيطان متشابهان تماما ، وان كانت جميع الجواهر تتمثل نفس العالم أو تعكسه وتصوره . ولهذا فان الادراك الذى يكون متميزا =

بينه وبين الآخر ، ويتبع هذا أن يكون الفعل من وجهة نظر معينة ، منفصلا من وجهة نظر أخرى : فهو فعال بمقدار ما نعرف فيه معرفة متميزة ما يساعد على تحليل الحدث الذى يتم فى ( جوهر ) آخر معرفة متميزة .  
(التيوديسية ٦٦) .

٥٣ — ولما كانت أفكار الله تحتمل على عدد لا حصر له من العوالم الممكنة التى يستحيل ان يوجد منها إلا عالم واحد ، فيلزم أن يكون هناك سبب كاف لاختيار الله ، جعله يفضل عالما بعينه على غيره <sup>(١)</sup> . قارن التيوديسية ، ٨ و ١٠ و ٤٤ و ١٧٣ و ١٩٦ وما بعدها و ٢٢٥ و ٤١٤-٤١٦ (٤١٦-٤١٦) ٥٤ — وهذا السبب لا يمكن أن يوجد إلا فى التلازم <sup>(٢)</sup> أو فى درجات الكمال التى تحتمل عليها هذه العوالم ، طالما كان لكل ممكن الحق فى التطلع <sup>(٣)</sup>

== نسبيا فى أحدها ، لا بد أن يكون غامضا أو مختلاطا نسبيا فى جوهر آخر أو جواهر أخرى ، وأى تغير يلحق بأحدها لا بد أن يقابله تغير فى سواء ، وهكذا يتلامم مع غيره .

(١) ليس الله ملزما بفعل ضرورة ميتافيزيقية مطلقة ، ولكنه دميال ، بفعل الضرورة الأخلاقية لخلق العالم الذى هو أصلح عالم ممكن وأفضل نظام متجانس . وترجع التفرقة بين الضرورة الأخلاقية والالزام المطلق الى أصل مدرسى .

(٢) أو التوافق والتناسب Conenance وقد استبعدتهما لما توحيان به من ظلال نفسية ورياضية .

(٣) هذا التطلع يعبر عن النزوع للوجود والانتقال من الادراكات المختلطة الغامضة الى الادراكات الواضحة المتميزة ، وهذا هو الذى يجعل من الأشياء الممكنة ماهيات واقعية متميزة عن القدرات والامكانيات غير المحددة . فالامكان يحتوى دائما على بذرة الواقع ، كما أوضحنا فى موضع سابق ( أنظر هامش الفقرتين ٤٠ و ٤٣ ) .

إلى الوجود، على قدر الكمال الذى ينطوى عليه ( التيوديسيه ، ١٦٧ و ٧٤ و ٣٥٠ و ٢٠١ و ١٣٠ و ٣٥٢ و ٣٤٥ وما بعدها ٣٥٤ ) .

٥٥ -- هنا تسكن هالة وجود الأصلح<sup>(١)</sup> ، الذى يعرفه الله بفضل حكمته ، ويختاره بفضل رحمته<sup>(٢)</sup> ، ويخلقه بفضل قوته<sup>(٣)</sup> ( قارن التيوديسيه ٧٨ و ٨٠ و ٨٤ و ١٩٩ و ٢٠٤ و ٢٠٦ و ٢٠٨ ، وموجز الاعتراضات ، الاعتراض الأول والثامن ) .

٥٦ - هذا الترابط أو هذا التلاؤم بين جميع المخلوقات وبين كل واحد منها على حدة ، ثم بين كل واحد منها والجميع - يترتب عليه أن يحتوى كل جوهر بسيط على علاقات تعبر عن مجموع الجواهر الأخرى ، وأن يكون تبعاً لذلك مرآة حية دائمة للعالم<sup>(٤)</sup> ( قارن التيوديسيه ١٣٠ و ٣٦٠ ) .

---

(١) أو الأفضل والأحسن Le Milleur .

(٢) أو خيريته وطيبته bonté .

(٣) تعبر هذه الفقرة تعبيراً دقيقاً موجزاً عن المبادئ التى يقوم عليها تفاؤل ليمبنتز ، وقد شرحها ودافع عنها فى رسالته عن العدل الإلهى « التيوديسيه » وحيثه هى أن العالم الذى يخلو من الشر خلواً تاماً سيستحيل تمييزه عن الله نفسه. وينشأ الشر الموجود فى العالم من القصور والتحدد السكامين فى طبيعة المخلوقات . ولهذا فإن الله لم يخلق الشر ، وإنما خلق عالماً يوجد فيه أقل قدر من الشر يمكن أن يوجد فى أى نظام للأشياء .

(٤) راجع كذلك رسائل ليمبنتز إلى أرنو فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٦٨٧ ورسالته إلى الأميرة صوفى فى السادس من فبراير سنة ١٧٠٦ . ومن الغريب أن نيقولاوس الكوزانى قد عبر عن هذا المعنى فى كتابه عن اللعب ( أو دوران الأرض ١٤٦٤ ) De ludo globi . إذ نقرأ لديه قوله : إن الشكل ينعكس فى =

٥٧ - وكما أن مدينة واحدة بعينها ، إذا تأملها المرء من جوانب مختلفة ، تبدو في كل مرة على صورة مختلفة تمام الاختلاف ، وكأن لها منظورات متعددة ، كذلك توجد أيضا - تبعا للكثرة اللانهائية للجواهر البسيطة - عوالم عديدة مختلفة ، ليست إلا منظورات من عالم واحد وفقا لوجهات النظر المختلفة لكل مواناة على حدة ( قارن القيوديسيه ١٤٧ ) .

٥٨ - بهذه الوسيلة نحصل على أكبر قدر ممكن من التنوع ، ولكن مع أعظم قدر ممكن من النظام ؛ أى أننا نحصل بهذه الوسيلة على أعظم قدر ممكن من الكمال <sup>(١)</sup> ( قارن القيوديسيه ١٢٠ و ١٢٤ و ٢٤١ وما بعدها ٢١٤ و ٢٤٣ و ٢٧٥ ) .

٥٩ - وهذا الفرض وحده ( الذى أزعج <sup>(٢)</sup> أنه قد تمت البرهنة عليه ) يكشف عن عظمة الله ويضعها في الضوء الصحيح . ولقد عرف السيد «بايل» هذا ، عندما أثار في قاموسه ( مادة روراريوس <sup>(٣)</sup> ) عدة اعتراضات عليه ،

---

= جميع الاجزاء ، وكل الاشياء تحافظ على علاقتها ونسبتها للعالم ، كما يقول في كتابه عن العلم الجاهل *De docta ignorantia* ( ١٩٤٠ ) « أن الاشياء المرئية صور من غير المرئى ، والخالق يمكن أن يرى ويعرف عن طريق المخلوقات ( رؤية أو معرفة ) مظلمة كما في مرآة » .

(١) أى أن أقصى كال ممكن يتجلى في أتم وحدة أو نظام يشتمل على أكبر قدر من التنوع . فالمونادات مؤلفة في أتم وحدة ممكنة ، لأن ماهية كل منها في تصوير نفس العالم ، كما أنها متنوعة إلى أقصى حد ممكن ، لأن وجهات النظر التي تصور منها هذا العالم أو تعكسه متنوعة تنوعا لاحدا له .

(٢) حرفيا : الذى أجرف أو أتجاسر على القول بأنه ..

(٣) أنظر التذييل السابق في الفقرة ١٦ . وقد شبه بايل نظرية لينتزر هذه =

انساق فيها إلى الاعتقاد بأننى أنسب إلى الله أكثر مما ينبغي ، بل أكثر مما يمكن نسبته إليه . غير أنه قد عجز عن تقديم أى سبب يمكن أن يبرر إمكانية ذلك الانسجام الكونى الشامل الذى يجعل كل جوهر يعبر تعبيراً دقيقاً عن سائر الجواهر الأخرى عن طريق العلاقات التى تربطه بها .

٦٠ - هذا وتبين مما سبق الأسباب القبلية التى تجعل الأمور تسير على هذا النحو دون غيره . لأن الله عندما دبر نظام الكل قد وضع فى اعتباره كل جزء على حدة كما وضع فى اعتباره بوجه خاص كل «ونادة على حدة» وهى بطبيعتها كائن متصور<sup>(١)</sup> ، فليس ثمة ما يقصرها على تصوير جزء واحد من الأشياء ، وإن كان من الصحيح مع ذلك أن هذا التصور ، فيما يتصل بالأشياء الجزئية<sup>(٢)</sup> الموجودة فى العالم ، تصور مشوش (مختلط) ولا يمكن أن يتضح إلا فى جزء ضئيل من الأشياء ، أعنى تلك التى تكون

---

== بسفينة صنعت بحيث يمكنها أن تمرر العباب وحدها بغير قبطان ولا ملاحين، وتبحر من شاطئ إلى آخر ، وتتلاءم مع الرياح والعواصف التى تهب عليها ، وتتجنب المخاطر والمياه الضحلة ، وترسو أو ترفع أو تسعى إلى الميناء كما تفعل أى سفينة عادية . وهو يسلم بأن قدرة الله المطلقة يمكن أن تزود السفينة بمثل هذه القوة ، ولكنه يذهب إلى أن طبيعة السفينة نفسها تمنعها من ذلك : «ومهما تكن معرفة الله وقدرته غير محدودة ، فإنه لا يستطيع بواسطة آلة ينقصها جزء معين أن يعمل ما يتطلب معونة هذا الجزء» . وهكذا يجادل بايل فى صحة مذهب الاتساق المقدر ويجرد المونادات من تلقائيتها ، ويرى أن ليبنتز قد لجأ إلى ما يعرف فى المسرح «بالاله - الآلة» لينقذ مذهبه من ورطة محققة ..

(١) أو متمثل representative .

(٢) أو تفاصيل الأشياء le détail .

أقربها أو أكبرها بالنسبة لـ شكل مادة<sup>(١)</sup> ، وإلا لكانت كل مادة  
إلهاً . وإذن فالحدود ( التي تقيد ) المونادات لا تتمثل في الموضوع وإنما  
تتمثل في أسلوب المعرفة المختلف بالموضوع<sup>(٢)</sup> . أنها جميعاً تسعى على نحو  
مختلط ( غامض ) للوصول إلى اللامتناهي ، إلى الشكل<sup>(٣)</sup> ، ولكنها  
تظل محدودة ومتميزة عن بعضها البعض عن طريق درجات وضوح الإدراكات  
وتمييزها .

٦١ - وفي هذا يعبر المركب تعبيراً رمزياً عن البسيط<sup>(٤)</sup> . فلما كان كل

(١) إذا كانت المونادات غير مكانية ، فكيف يمكن الحديث عن شيء  
أقرب أو أكبر بالنسبة لها ؟ لـ شكل مادة جسم من نوع ما ، وهذا الجسم يدرك  
إدراكاً غامضاً بوصفه يشغل مكاناً في ذاته وفي علاقته بالأجسام الأخرى ، وإن  
لم يكن هذا الجسم سوى مجموع ينتظم عدداً من المونادات غير المسكانية . ومعنى  
العبارة أن الأشياء قريبة أو كبيرة بالقياس إلى جسم المادة .

(٢) أى أن الفكر بمعنى الواسع ، سواء أكان فكراً وإعياً أو غير واع ،  
إنما يتحدد بنفسه . ولا يمكن أن يوجد شيء لا يقبل أن يكون موضوعاً للفكر .  
قارن موقف « كانت » من هذه المسألة وتفرقة الحاسمة بين عالم الظواهر أو  
التجربة ( الذي يمكننا أن نعرفه معرفة موضوعية ) وعالم الشيء في ذاته أو عالم  
الحقائق المتعالية الذي نفترض وجوده ونسلم به دون أن يكون في وسعنا أن نعرفه  
معرفة ذهنية محددة . ( لأنه يتجاوز حدود الفهم المقيد بعالم الظواهر ) .

(٣) قارن بهذا عبارة نيقولا سالكوزاني في كتابه عن التسكوين De Genesi  
(١٤٤٧) ٧٢ ب « كل الأشياء تبحث عن شيء واحد ، وهو شيء . مطابق » .

(٤) يترجم « لاتنا » هذه العبارة بقوله : « والمركبات من هذه الناحية متشابهة  
( أو مماثلة لـ الخ ) مع الجواهر البسيطة ، وقد آثرت الاحتفاظ بالفعل الأصلي =

شيء ممثلاً أو ملاء<sup>(١)</sup> - وهذا هو الذى يجعل المادة كلها مترابطة - وكانت كل حركته تتم في الملاء تؤثر على الأجسام البعيدة على حسب بعدها، بحيث أن كل جسم لا يتأثر فعسب بالأجسام الملامسة له مباشرة ويشعر على نحو من الأنحاء بكل ما يحدث لها ، بل يشعر عن طريقها كذلك بتأثير تلك الأجسام التي تلامس الأجسام الأولى التي تلامسه مباشرة فيلزم عن هذا أن هذا السياق يمتد إلى أى مسافة ممكنة . ويقرتب على هذا أن يشعر

---

= « ترمز symbolisent ، لاسيما أن « لانا ، نفسه يفسر العبارة بأن الرمز هنا يوجي بفكرة الحساب التي ظلت تشغل ليبنتز طوال حياته ، فكما أن الأعداد رموز للعدودات ، ونحن لانضطر في كل عملية حسابية للإشارة في كل خطوة منها إلى الأشياء الجزئية التي ترمز لها الأعداد ، فإن الأفكار العامة التي لانقوم بتحليلها يمكن أن ترمز للعناصر البسيطة المكونة لها . بهذا المعنى تكون الأشياء المركبة رموزاً لعناصرها البسيطة . وما ندركه من المركبات بصورة غامضة ليس مجرد وهم وإنما هو تمثل ناقص أو رموز للخصائص الحقيقية للجواهر البسيطة . وهكذا يكون الملاء plenum المسكاني أو المادى ( وهو إدراك غامض من جانبنا ) رمزاً لسلسلة المونادات اللامتناهية أو السكاملة التي لانتوى على أية ثغرات تفصل بينها ، لأن المونادات تختلف عن بعضها البعض بدرجات لامتناهية في الصغر . كذلك يمكن القول بأن الأفعال وردود الأفعال المادية التي تتم في العالم بحيث يؤثر أى تغير في نقطة معينة على سائر النقاط إنما هي رموز تعبر عن التجانس أو الاتساق المقدر بين المونادات . وأخيراً فإن ما يذهب إليه ليبنتز من أن كل ما يحدث في العالم أو حدث أو سوف يحدث يمكن أن نقرأه على أى جسم إنما هو رمز معبر عن طبيعة المونادة التي تمثل العالم كله وتحتويه كله في داخلها ( على الأقل من الناحية المثالية ) .

(١) الملاء Le plein plenum وقد فضلت الكلمة العربية القديمة .

كل جسم بكل مايجرى في العالم ، بحيث يستطيع ذلك الذى يرى كل شيء أن يقرأ في كل واحد منها ما يحدث في كل مكان ، بل يستطيع أن يرى ما حدث في الماضى وما سوف يحدث في المستقبل ، وذلك بأن يلاحظ في الحاضر ما هو بعيد من جهة الزمان والمكان : وهذا هو الذى سماه بقراط : « تلاؤم الشكل »<sup>(١)</sup> بيد أن النفس لا يمكنها أن تقرأ في ذاتها إلا ما هو ممثل فيها تمثلاً واضحاً مميزاً : أنها لا تستطيع أن تنشر كل ثمراتها المطوية دفعة واحدة ، لأن هذه تمتد إلى ما لا نهاية .

٦٢ - ومع أن كل موناذة مخلوقة تصور<sup>(٢)</sup> العالم بأكملة ، فإنها تصور الجسم المتعلق بها خاصة والذى تكون هي « انقليخياه »<sup>(٣)</sup> تصويراً أشد تمهيزاً . وكما يعبر<sup>(٤)</sup> هذا الجسم عن العالم كله - نتيجة السياق المتصل للمادة بأجمعها في الملاء - فإن النفس أيضاً تصور السكون كله ، بتصويرها للجسم المتعلق بها تعلقاً خاصاً . ( قانون التيوديسييه ٤٠٩ ) ،

٦٣ - الجسم الذى يتعلق بموناذة هي انقليخياه أو نفسه يؤلف مع

(١) حرفياً : تنفس الشكل معاً ، أى توافقه وتلاؤمه وقد ذكرت الكلمتان في الأصل بحروفهما اليونانية ، ولعل ليبنتز أن يكون قد تذكر عند كتابة هذه الفقرة عبارة قرأها في أحد كتب أبقراط ( عن التغذية ، ٤٩ De Alimento ) يفهم منها تعاطف الفرد مع الكل .

(٢) يستعمل ليبنتز كلمة *represente* بمعنى يمثل أو يعكس أو يصور ، وقد فضلت الكلمة الأخيرة بمعناها المألوف اليوم في اللغة العادية .

(٣) راجع هامش الفقرة (١٤) .

(٤) يستخدم ليبنتز هنا كلمة *exprime* ثم يرجع للكلمة السابقة بعد ذلك مباشرة ! .

( م ١١ - المونادولوجيا )

الانليمنخيا ما يمكن تسميته **كائنات حيا** ، ومع النفس ما يمكن تسميته **حيوانا** ،<sup>(١)</sup> وهذا الجسم المتعلق بكائن حي أو حيوان يكون على الدوام جسما عضويا ، لأنه لما كانت كل موناذة مرآة تعكس العالم على طريقةها ، وكان العالم مدبرا وفق نظام كامل ، فيلزم أيضا أن يكون هناك نظام فيمن يقوم بتصوره ،<sup>(٢)</sup> أى فى إدراكات النفس ، وبالتالي فى الجسم الذى بمقتضاه يتصور العالم فى النفس (قارن التيوديسييه ، ٤٠٣ ) .

٦٤ - وهكذا يكون كل جسم عضوى للسكان الحى نوعا من الآلة الآلهية ، أو من الآلية<sup>(٣)</sup> الطبيعية التى تفوق جميع الآليات الصناعية<sup>(٤)</sup> إلى حد لانهائى . لأن الآلة التى يصنعها الفن البشرى<sup>(٥)</sup> ليست آلة فى كبل جزء من أجزائها : فسن العجلة النحاسية على سبيل المثال ذات أجزاء أوقطع لاتعد فى نظرنا شيئا فنيا ( أو صناعيا )<sup>(٦)</sup> وليس فيها كذلك شئ يجعلنا نلاحظ وجود الآلة التى أعدت العجلة لتشغيلها . أما آلات الطبيعة ، أى

---

(١) راجع الفقرة (١٩) - ويستخدم ليبنتز اصطلاح السكان الحى للإشارة بنوع خاص إلى كل من كانت الموناذة الرئيسية فيه موناذة غير واعية ، أما والحيوان ، فيميزه عن السكان الحى أن الموناذة الرئيسية عنده ذات شعور وذاكرة .

(٢) حرفيا : فى المتصور أو المتمثل .

(٣) الآلية ترجمة للاوتومات L'Automate أى الجهاز الآلى المتحرك بذاته تميزا عن الآلة Machine .

(٤) الصناعية أو المصطنعة artificiel تميزا لها عن الطبيعية .

(٥) أو البراعة والمهارة البشرية .

(٦) الكلمة الأصلية هى الفن الإلهى art divin ، ولكن المقصود بها هو فن الصنعة ، وقد تبعت المترجم الالماني فى هذا التصرف .

الأجسام الحية ، فهي تظل آلات في أدق أجزائها وإلى مالا نهاية . وفي هذا يسكن الفرق بين الطبيعة والفن ، أى بين الصنعة الإلهية وصنعتنا البشرية<sup>(١)</sup> ( قارن التيوديسييه ، ١٣٤ ، ١٤٦ و ١٩٤ و ٤٨٣ ) .

٦٥ - وقد تمسكن مبدع الطبيعة من خلق<sup>(٢)</sup> هذا العمل الفنى الإلهى الذى بلغ الغاية من الاعجاز لأن كل قطعة من المادة ليست فحسب قابلة للتجزئة إلى مالا نهاية ، كما عرف ذلك القدماء ، بل إنها كذلك مجزأة فى الواقع<sup>(٣)</sup> إلى مالا نهاية ، وكل جزء ينقسم بدوره إلى أجزاء لكل

---

(١) قارن عبارة نيقولا السكوزانى فى كتابه عن الحقى *Idiotae lipri quatuor* ( ٨٢ و ٢٣ أ ) : « إن الفنون البشرية صور من الفنون الإلهية » .

(٢) ح : من إستخدامة وممارسته .

(٣) أو مجزأة بالفعل ، وقد سبق للبينتز أن عبر عن هذه الفكرة فى جوابه على رسالة فوشيه ( ١٦٩٣ ) حيث يقول : « ليس هناك جزء من المادة إلا وهو مجزأ بالفعل ، ولأقول يقبل القسمة ، ويترتب على هذا أن أصغر جزء من المادة يجب أن ينظر إليه باعتباره عالما مليئا بالانهاية له من الكائنات المختلفة ، — ومن الواضح أن القسمة اللامتناهية للمادة تثير صعوبات عديدة ، لاسيما وأن لبينتز يؤكد دائما أن المادة تتألف من عناصر غير مكانية أو غير كمية ، ويعتبرها مجرد مجموع مؤلف *aggregat* أى ليست بذاتها جوهرها واقعيًا . فهل يمكن أن يتسكون هذا المجموع من عدد لانهاية له من الأجزاء الواقعية ؟ ألا يعنى الانقسام إلى مالا نهاية استحالة حصر الأجزاء ؟ أليست العلاقة بين الكل والأجزاء علاقة غير محددة بحيث لا يمكننا أن نعرف بالضبط ما هو المقصود بالجزء ؟ وهل يمكن أن نتكلم عن الأشياء على اعتبار أنها تنقسم بالفعل إلى مالا نهاية بغير أن تقع فى التناقض ؟ قد يرد لبينتز على هذا بأن المادة التى تنقسم إلى =

منها حركة خاصة به : ولو كان الأمر على خلاف هذا لما أمكن أن تعبر كل قطعة من المادة عن العالم كله . ( قارن التيوديسييه ، المبحث القمبيدي ، ١٩٥ ، ٧ ) .

٦٦ - من هذا نتبين أن أقل جزء من المادة يحتوى على عالم من الخاوقات ، والكائنات ، والحيوانات ، والاقليخيات ، والنفوس .  
٦٧ - يمكن تصور كل قطعة من المادة كما لو كانت حديقة حافلة بالنباتات أو بركة غنية بالأسماك . ولكن كل غصن من أغصان النبات ، وكل عضو من أعضاء الحيوان ، وكل قطرة من قطرات عصارته هي كذلك مثل هذه الحديقة أو هذه البركة .

٦٨ - ومع أن الأرض والهواء السارى بين نبات الحديقة والماء الجارى بين أسماك البركة ليست هي نفسها نباتا ولا سمكا ، فإنها مع ذلك تحتوى على أمثالها ،<sup>(١)</sup> وإن تسكن في أغاب الأحوال من نوع دقيق يتمذرا علينا إدراكه<sup>(٢)</sup>

---

== مالا نهاية ليست إلا ظاهرة نتجت عن لانهاية المونادات الواقعية ولكن مشكلة الانقسام اللامتناهى تظل قائمة . وقد أثارها كانت في النقيضتين الأوليين من كتابه نقد العقل الخالص ، كما انتقدها العالم الرياضى أويلر Euler الذى يرى أن وجود وحدات على هيئة المونادات يتضمن انقسام المادة بصورة نهائية .  
(١) أى على أمثال هذه النباتات والأسماك .

(٢) تابع ليمنتز الابحاث الميكروسكوبية التى كانت تجرى في حياته باهتمام وشغف جذيرين برجل موسوعى مثله . وقد أشار في كتاباته عدة مرات إلى أسماء بعض العلماء مثل العالم الطبيعى الهولندى فان لوفنهوك ( ١٦٣٢ — ١٧٢٣ ) مكتشف الحيوانات المنوية أو الاسبر ماتوزوا ، وعالم الحشرات الهولندى سوامردام ( ١٦٣٧ — ١٦٨٠ ) وعالم التشريح الايطالى مالميجى ( ١٦٢٨ — ١٦٩٤ ) الذى كان أول من استعمل الميكروسكوب في دراسة الانسجة ==

٦٩ - ولهذا فليس في العالم يهاب ولا عقم ولا موت ، ليس فيه فوضى ولا اضطراب<sup>(١)</sup> إلا في الظاهر ؛ وهذا أشبه بمنظر بركة نعامها من بعيد فلا نسكاد نرى فيها إن جاز هذا التعبير إلا حركة مضطربة وحشداً مختلطاً من الأسماك ، دون أن نميز الأسماك نفسها بوضوح ( قارن القيوديسيه - المقدمة ) .

٧٠ - نرى من هذا أن لكل جسم حتى أنقليهخيا تتحكم فيه هي النفس لدى الحيوان ، ولكن أعضاء هذا الجسم الحى نفسها زائفة بكائنات حية أخرى ، من نباتات وحيوانات لكل منها كذلك أنقليهخياه أو نفسه المتحركة فيه<sup>(٢)</sup> .

== وفيولوجيا الحيوان والنبات . وقد شجع ليننتز هذه الدراسات التي رأى أنها ستكشف عن معجزات عالم جديد وتزيد معرفتنا أضعافاً مضاعفة ، كما تحسر على أن هناك عشرة فقط يعم كفون في عصره على أمثال هذه الأبحاث التي تستحق أن يربها الملوك والأمراء . ( وذلك في « التأمل عن الفكرة الشائعة عن العدالة » ولعل النص السابق أن يكون قد تنبأ بالدراسات الحديثة عن الخلية ، وإن كانت لا تقبل القسمة إلى مالا نهاية كما تصور ليننتز !

(١) Chaos وهو العماء أو الاختلاط والاضطراب الذي لاحد له . ويكرر ليننتز نفس الفكرة عن خلو العالم من العقم والموت في رسالته إلى برنوليوم (١٦٩٩) . Epistola ad Bernonllium .

(٢) تشير هذه الفقرة مشككة عويصة . ألا يمكن وفقاً لما جاء فيها أن نتصور العالم كله جسماً واحداً يسكنه الله - أو موناة المونادات - هو النفس المتحركة فيه على نحو ما عبر الشاعر الانجليزى بوب في مقاله عن الانسان ، الرسالة الأولى ، : ٢٦٧

« ما الأشياء جميعاً إلا أجزاء من كل هائل عجيب  
الطبيعة جسمه والله هو الروح »

=

٧١ — ولكن لا يجوز أن يتوهم أحد — كما فعل البعض نتيجة إساءة فهم مذهبي<sup>(١)</sup> — أن كل نفس لها كقطة أو قطعة معينة من المادة، مخصصة لها إلى الأبد<sup>(٢)</sup> ، وأنها تبعا لذلك تملك كائنات حية أخرى أدنى درجة ، مجعولة لخدمتها على الدوام . لأن الأجسام كلها في سيرة دائمة ، كالأنهار<sup>(٣)</sup> ، وتدخل فيها وتخرج منها أجزاء باستمرار .

---

== سيجيب لينتز على الفور بأن الله لا جسم له ( المونادولوجيا ٧٢ ) . ولكن المشكلة تظل قائمة . وقد رفض لينتز فكرة « النفس الكلية » التي يفهم منها ضياع استقلال النفوس الفردية . تدل على هذا رسالته إلى أرنو ( ٢٦٨٧ ) التي يقول فيها : « مع أن النفس يمكن أن تكون ذات جسم مكون من أجزاء ، لكل جزء منها نفسه الخاصة به ، فإن نفس الكل أو شكله ليست مؤلفة من نفوس الأجزاء أو أشكالها .

(١) حرفيا : تفكيرى . ويحتمل أن يكون سوء الفهم الذي يقصده لينتز قد نشأ عن الخلط بين « المادة الأولى » ، وهى العنصر السلبى أو المنفعل فى المونادة المخلوقة الذى لا ينفصل عن العنصر الإيجابى الفعال وهو النفس ، وبين « المادة الثانية » وهى الجسم المتغير للجوهر المركب ، الذى يتصف بأنه ظاهرى وغير واقعى ، وإن كان يقوم على أساس من الواقع .

(٢) أى عيقت لها بحيث تنتمى لها وتكون من نصيبها إلى الأبد .

(٣) أى فى تغير وتحول وصيرورة دائمة . والعبارة قديمة قدم هيراقليطس وشذراته المشهورة فى هذا المعنى ونذكر منها : من المستحيل النزول فى نفس النهر مرتين ، كل شئ يسيل على الدوام ، الكل يسيل ( أو يتدفق ) كما يسيل النهر . ( راجع طبعة ديلز وكرايس لشذرات الفلاسفة قبل سقراط ، الطبعة المختصرة التى نشرها فالتر كرايس ، برلين ١٩٥٩ ، مكتبة فايدمان ، ص ٨٣ ) وراجع كذلك محاوره كراتيلوس لأفلاطون ( ٤٠٢ أ ) حيث تجدد هذه العبارة الشهيرة ==

٧٢ — وهكذا فإن النفس لا تغير جسمها إلا ببطء وبالتدريج ، بحيث لا تجرد أبداً من جميع أعضائها دفعة واحدة ، وكثيراً ما يتم التحول بين الحيوانات ، ويمكن تغمص الأرواح أو تناسخها لا مكان له على الإطلاق : كذلك لا توجد نفوس قائمة بنفسها أو مستقلة تمام الاستقلال ( عن الأجسام ) ولا أرواح <sup>(١)</sup> بغير أجسام . إن الله وحده منزّه عن الجسمية كل التنزيه <sup>(٢)</sup> ( قارن التهوديسية ٩٠ و ١٢٤ ) <sup>(٣)</sup> .

---

== التي يقول فيها أفلاطون إن هيراقليطس قد شبه الأشياء ببحر يان النهر ، وقارن كذلك الميتافيزيقا لأرسطو ، كتاب الألفا ، ٦ و ٩٨١ أو ٢٢ ، وطبعة بيرنت ، الفلسفة اليونانية المبكرة ، التي اعتمد عليها أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه فجر الفلسفة اليونانية ) .

(١) بمعنى Génies أو Spirits .

(٢) حرفياً : برىء أو خالص منها détaché .

(٣) أنظر كذلك المقال في الميتافيزيقا ٣٤ — وتفسير هذا أن النفس التي تكون بغير جسد ستكون مقطوعة الصلة بالمونادات الأخرى ، لأن الجوهر المركب إنما يكون كذلك لأنه مركب من نفس وجسم ، أى من مونادة مركزية أو أساسية على علاقة بمونادات فرعية . وقد كتب ليبنتز في « نظراته في مبادئ الحياة » ( ١٧٠٥ ) يقول إن المخلوقات الحرة أو المحررة من المادة ستكون في نفس الوقت مفصولة من السياق الكلى للأشياء ، وخارجة عن النظام العام . ومن ناحية أخرى يمكن القول بأن النفس التي بلا جسم ستكون مونادة لا تتفاعل ولا تدرك الإدراك الذى يتفاوت بين الوضوح والغموض لدى جميع المونادات المخلوقة ، ومعنى هذا أن تلك النفس لا بد أن تكون « فعلاً خالصاً » أى لا بد أن تكون لها . .

٧٣ — ولهذا السبب لا يوجد أبداً تولد كامل ولا موت كامل بالمعنى الدقيق ، بمعنى انفصال النفس عن الجسد . وما نسميه بالتوالد إنما هو نوع من التطور والنمو ، أما ما نسميه بالموت فهو انكماش وتناقص<sup>(١)</sup> .

٧٤ — ظل الفلاسفة دائماً في حيرة من أمرهم حول أصل الأشكال والانقلاحيات أو النفوس . أما اليوم ، بعد أن عرفنا من الأبحاث الدقيقة التي أجريت على النباتات والحشرات والحيوانات الأخرى أن الأجسام العضوية في الطبيعة لا تنشأ أبداً من العماء<sup>(٢)</sup> أو التعفن ، وإنما تنشأ دائماً من بذور كانت تحتوى بغير شك على نوع من التشكل السابق<sup>(٣)</sup> ، فقد

---

(١) راجع رسالة ليبنتز إلى أرنو في ١٦٨٧/٤/٣٠ .

(٢) ترجمة لكلمة Chaos ، وقد ترجمناها من قبل حسب السياق بمعنى الفوضى والاختلاط الشامل .

(٣) قارن كذلك المقال في الميتافيزيقا ٣٤ ورسالة ليبنتز إلى أرنو في الثلاثين من ابريل سنة ١٦٨٧ . ويشير ليبنتز في هذه الفقرة إلى نظرية التشكل السابق التي قال بها فان لوفينهورك ( ١٦٣٢ — ١٧٢٣ ) — أنظر كذلك النيوديسية ٩١ ورسالة ليبنتز إلى أرنو في سبتمبر / أكتوبر ١٦٨٧ ورسائله إلى صوفي شارلوت ملكة بروسيا التي يقول فيها إن البذرة الحية والعضوية قديمة قدم العالم . وقد كان الرأى قبل عصر ليبنتز مباشرة أن الحياة في النبات والحيوان والانسان تنشأ إما عن طريق « الانتقال » Traduction أو « الاستنباط » education فأصحاب النظرية الأولى يقولون بأن « شكل المولود يأتي من شكل الأبوين على نحو ما يأتي جسده من جسدتهما . أما أصحاب النظرية الثانية فيذهبون إلى أن الحياة تنشأ عن المادة غير العضوية أو من « العماء والتعفن » على حد تعبير ليبنتز . ولكن نظرية « التشكل السابق » تذهب إلى أن « البذرة أو « النطفة » تحتوى على صورة مصغرة من النبات أو الحيوان ككلى ، أي أن « شكل » النبات أو الحيوان يوجد في =

استدريج العلماء من ذلك أن الجسم العضوى لم يكن هو وحده موجوداً فيها قبل الحمل ، بل كانت هناك أيضاً نفس في هذا الجسم ، وباختصار كان الحيوان نفسه موجوداً فيها . وعن طريق الحمل توصل هذا الحيوان إلى القدرة على التشكل الكبير فحسب ، لىكى يصير حيواناً من نوع آخر . ونلاحظ شيئاً شبيهاً بهذا خارج نطاق التولد ، عندما تتحول الديدان مثلاً إلى ذباب أو اليرقانات إلى فراشات ( قارن التهوديسية ٨٦ و ٨٩ ، المقدمة ٥ ب وما بعدها من صفحات ، ٩٠ و ١٨٧ و ١٨٨ و ٣٩٧ )

٧٥ - يمكن تسمية الحيوانات التى يرفع بعضها من طريق الحمل إلى مستوى الحيوانات الكبرى باسم الحيوانات البدئية ، أما ما يبقى منها داخل نوعه ، أى معظمها ، فإنه ينشأ <sup>(١)</sup> ، ويتكاثر ، ويفنى كالحيوانات الكبيرة ، والنخبة القليلة منها هى التى تنقل إلى مسرح أكبر .

٧٦ - غير أن هذا لم يكن لهبر إلا عن نصف الحقيقة <sup>(٢)</sup> : لذلك انتهيت

---

== البذرة أو الحيوان المنوى من بدء الزمان والخلقة فى حالة ككون أو انكماش . وقد قامت هذه النظرية التى تبناها لينتزن على أساس الأبحاث الميسكروسكوبية التى قام بها مالبيجى ولوفتموك ( أنظر هامش الفقرة ٦٨ ) وغيرها علم الوراثة الحديث تغييراً تاماً . وقد رفض لينتزن النظرية الأولى وإن كان قد وصف نظريته بأنها نوع من الانتقال ولكن فى صورة معدلة أدعى للقبول من الصورة الشائعة ( التهوديسية ٣٩٧ ) .

(١) أو يولد .

(٢) أى أن العلماء لم يقرروا فى رأيه إلا نصف الحقيقة ، ولن يعترضوا على نصفها الثانى الذى يقول به لينتزن من أنه من الطبيعى أن يمتد الانسان بأن ما لا يبدأ لا ينتهى . ( من رسالته إلى أرنو ١٦٨٧ ) .

إلى الحكم بأنه إذا كان الحيوان لا ينشأ أبداً نشأة طبيعية ، فإنه لا يفسد كذلك بطريقة طبيعية ، وأن الأمر لا يقتصر فحسب على إمكانية التولد ، بل يعمدها إلى إمكانية الفناء الكامل وإستحالة الموت بمعناه الدقيق . وهذه القاملات التي تمت بطريقة بعدية واستخلصت من التجربة تنفق تمام الاتفاق مع المبادئ التي استنتجت فيما سبق بطريقة قبلية<sup>(١)</sup> ( قارن القيوديسيه ٩٠ ) .

٧٧ - يمكن القول إذن بأن النفس ( وهي مرآة عالم لا يندثر )<sup>(٢)</sup> ليست هي وحدها التي لا يجوز عليها الفناء ، بل كذلك الحيوان نفسه<sup>(٣)</sup> ، على الرغم من أن آلهة تفسد في كثير من الأحوال فساداً جزئياً وتنزع أو ترتدى أغشية عضوية<sup>(٤)</sup> . ( قارن القيوديسيه ، المقدمة ٦ و ٣٤٠ و ٣٥٢ و ٣٥٣ و ٣٥٨ ) .

٧٨ - وقد أتاحت لي هذه المبادئ وسيلة تفسير إتحاد النفس مع الجسم العضوي أو بالأحرى اتساقها معه تفسيراً طبيعياً ، إن النفس تتبع قوانينها

---

(١) راجع الفقرات ٣ و ٤ و ٥ من المونادولوجيا . والتوفيق بين القبلي والبعدي أمر ملحوظ في تفكير ليبنتز ، يعبر عن إيمانه بالتجانس والاتساق بين الطبيعة وما بعد الطبيعة ، وبين الأسباب الميكانيكية والأسباب الديناميكية أو العائية .

(٢) حرفياً : لا يتحطم .

(٣) لأن النفس لا بد أن يكون لها جسم من نوع ما ، وهذا الجسم مركب من مونات لا تفسد ولا تنفنى واسكن الحيوانات ليست خالدة ، لأن الخلود مقصور على النفوس العاقلة أو المونات الواعية .

(٤) على نحو ما تمسك الحية من جلودها القديم ( عن رسالة ليبنتز إلى الأميرة صوفي ، ١٦٩٦ ) .

الخاصة كما يخضع الجسم لقوانينه الخاصة ؛ وهما يتلاقيان <sup>(١)</sup> بفضل الاتساق المقدر بين جميع الجواهر ، لأنها جميعا <sup>(٢)</sup> تمثلات عالم واحد بعينه <sup>(٣)</sup> .

(١) أو يتفقا ويتواءمان se rencontrent .

(٢) أى الجواهر .

(٣) ومعنى هذا أن مشكلة الارتباط بين النفس والجسم جزء من مشكلة أكبر تتصل بالعلاقة بين المونادة أو الجوهر البسيط وبين سائر الجواهر .

ويلاحظ أن ليبنتز يعبر في هذه الفقرة عن اعتراضه على أصحاب مذهب « المناسبة » occasionalisme الذين حاولوا أن يحلوا مشكلة العلاقة بين النفس والجسم التي تركها ديكارت بغير حل مقنع . ويتلخص هذا المذهب في أن الأشياء لا تؤثر على بعضها البعض في الأحداث التي ترتبط فيها العلة بالمعلول ، وإنما الأشياء أدوات أو « مناسبات » للفعل الوحيد وهو الفعل الإلهي . وتفسير ذلك فيما يتصل بالعلاقة بين النفس والجسم ( اللذين نفي ديكارت إمكان التأثير المتبادل بينهما لاختلاف طبيعتهما اختلاف الفسك عن الامتداد والوعى عن المادة ) أن الله يخلق الإحساسات النفسية « بمناسبة » الحركات البدنية ، كما يخلق الحركات العضلية « بمناسبة » الأفعال الإرادية . وقد بدأت هذه الفكرة عند الغزالي ( التهافت ، المسألة السابعة عشر ) ، ولكنها ارتبطت باسم مابرائش ( ١٦٣٨ — ١٧١٥ ) وأرنولد جويلنسكس ( ١٦٢٤ — ١٦٦٩ ) — وقد كان من رأى ليبنتز أن مثل هذا المذهب مناف للطبيعة ، وأنه ينطوى على سلسلة لا آخر لها من المعجزات .

وقد بحث ليبنتز في شهر فبراير سنة ١٦٩٦ رسالة إلى ناشر تاريخ أعمال العلماء Histoire des ouvrages des savants لجأ فيها لأول مرة إلى تشبيه الساحة المعروفة ، وكان ديكارت قد أشار إليه عندما شبه السكائنات أو الآلات الحية بالساعات ثم استخدمه جويلنسكس واستعان به ليبنتز في تفسير مذهبه عن الاتساق المقدر أو الانسجام والتجانس الذي دبره الله عندما خلق السكائنات ونظمها =

٧٩ — تفعل النفوس وفقا لقوانين العمل الغائية ، عن طريق النزوع ،  
والغايات والوسائل . وتفعل الأجسام وفقا لقوانين العمل الفعالة أو قوانين  
الحركات . وهاتان المملكتان ، مملكة العمل الفعالة ومملكة العمل الغائية ،  
متجانستان <sup>(١)</sup> .

٨٠ — عرف ديكارت أن النفوس لا يمكنها أن تمتد الأجسام بالقوة ،  
لأن كمية القوة التي في المادة ثابتة على الدوام . ومع ذلك فقد تصور أن  
النفوس يمكنها أن تغير اتجاه الأجسام ، ولكنه وقع في هذا الظن لأن القانون  
الطبيعي الذي يقول ببقاء نفس الاتجاه العام في المادة لم يكن قد عرف في  
عهده <sup>(٢)</sup> . ولو انتبه إليه لتوصل إلى مذهبي في الاتساق المقدر .

( قارن التيوديسية ، المقدمة ٢٢ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٣ و ٦٦ و ٣٤٥  
و ٣٤٦ وما بعدها ، ٣٥٤ و ٣٥٥ ) .

---

= بحيث يمتد كل منها إلى غايته مستقلا عن غيره وفي اتساق معه ، شبه الصانع  
المبدع الذي نظم الساعات بحيث تسير كل منها مستقلة عن غيرها ومتسقة معه في  
نفس الوقت . وقد وصف الناشر هذه الرسالة بأنها التفسير الثاني للمذهب الجديد .

(١) راجع الفقرة ( ١١ ) من المبادئ العقلية للطبيعة والعناية .

(٢) سبق لليبنيتز أن هاجم ديكارت وأتباعه حول هذه المسألة ، وذلك سنة  
١٦٨٦ في منشورات العلماء ، Acta erudit. Lipsiens التي كانت تصدر في مدينة  
ليبنج ، في بحث له عن الأخطاء ، الملحوظة ، التي وقع فيها ديكارت وغيره من  
العلماء حول القانون الطبيعي . كما تعرض لنفس الموضوع في المقال في الميثافيزيقا ،  
١٧ ، وفي المقال الذي هاجم فيه ديكارت ونشر في يونيو سنة ١٧٠٢ ، وفي رسالته  
إلى أنو في الثلاثين من أبريل سنة ١٦٨٧ .

٨١ — ويقضى هذا المذهب <sup>(١)</sup> أن تفعل الأجسام كما لو كانت النفوس غير موجودة (وهو أمر مستحيل) ، وأن تفعل النفوس وكأن الأجسام غير موجودة ، وأن يفعل الاثنان وكأن أحدهما يؤثر على الآخر .

٨٢ — أما العقول أو النفوس العاقلة فإنى وإن كنت أجد أن ما ذكرته الآن يصدق على جميع الكائنات الحية والحيوانات ( أى أن الحيوان والنفس لا ينشآن إلا مع نشوء العالم ولا يفسدان إلا بفساده ) ، فإن الحيوانات العاقلة تتميز مع ذلك بأن حيواناتها البذرية الصغيرة ، ما بقيت كذلك ولم تتعد <sup>(٢)</sup> ، لا تملك إلا نفوسا عادية أو نفوسا حساسة ، ولكن بمجرد أن تصل تلك التى يمكن أن نصفها بأنها نخبة متخارة إلى الطبيعة الإنسانية عن طريق الحمل الفعلى ، فإن نفوسها الحساسة ترتفع إلى مستوى العقل وترقى إلى المزية ( التى تتمتع ) بها العقول . ( قارن القيوديسية ، ٩١ و ٣٩٧ ) .

٨٣ — يضاف إلى الفروق الأخرى بين النفوس العادية والعقول ، وهى الفروق التى قدمت جزءاً منها فيما سبق <sup>(٣)</sup> ، أن النفوس على وجه الإجمال مرايا حية أو صور من عالم المخلوقات ، أما العقول فهى بالإضافة إلى ذلك

---

(١) يريد أن ديكارت كان سيبين أن النفس والجسم ليس لأحدهما أى تأثير على الآخر ، وأنه يلزم عن ذلك أن ينظر إليهما بوصفهما يعملان فى تجانس مع بعضهما البعض . وقد كان من رأى ليبنتز ( كما شرحه فى جوابه على أفكار بايل ، ١٧٠٢ ) أنه استطاع بهذا أن يوفق بين أفضل ما فى مناهب الماديين والمثاليين .

(٢) أى طالما بقيت حيوانات بذرية ( أو منوية ) صغيرة ولم تتعد ذلك .

(٣) راجع الفقرات السابقة من ١٩ إلى ٣٠ .

صور من الألوهية أو من مبدع الطبيعة ذاته ، انها تملك القدرة على معرفة نظام العالم <sup>(١)</sup> ومحاكاة شئ منه في عينات ( أو نماذج ) معيارية خاصة <sup>(٢)</sup> ، إذ أن كل عقل في مجاله أشبه بالألوهية صغيرة . ( قارن القيوديسية ١٤٧ ) .

٨٤ - وهذا هو الذى يجعل العقول ( أو الأرواح ) <sup>(٣)</sup> قادرة على الدخول مع الله في نوع من الحياة الجماعية <sup>(٤)</sup> ، بحيث لا يكون الله بالنسبة إليهما كالمخترع بالنسبة لآلته فحسب ( كما هو الحال بالقياس إلى علاقة الله بسائر المخلوقات ) ، وإنما يكون كذلك كالأمير بالنسبة لرعاياه ، بل كالأب بالنسبة لأبنائه .

٨٥ - من هذا نستنتج بسهولة أن مجموع العقول ( أو الأرواح ) يؤلف بالضرورة مدينة الله <sup>(٥)</sup> ، أى أكمل مدينة ممكنة في ظل أكمل الحكام

---

(١) يقول ليستنز في أحد بحوثه التى تركها بغير عنوان ( ١٦٨٦ ) إن الفرق بين الجواهر العاقلة وغير العاقلة يشبه في ضخامته الفرق بين المرأة ومن ينظر فيها !  
(٢) أى ليس الإنسان مجرد آلة صغيرة تعبر عن الآلة الكونية ، ولا هو « كون صغير » يعكس « الكون الكبير » كما كان القدماء يقولون ، وإنما هو قادر على خلق آلات صغيرة وإبداع تكوينات ونماذج تقوم على نفس المبادئ التى تعتمد عليها الآلة الكبرى ؛ ومعنى هذا أنه « مبدع صغير » أو « صورة » من المبدع الأعظم .

(٣) ابتداء من هذه الفقرة تصبح ترجمة كلمة esprits بالأرواح أقرب إلى السياق .

(٤) أو حياة مشتركة ، كما يترجمها « لاتا » ( fellowship )

(٥) إشارة إلى « مدينة الله » Civitas Dei للقديس أوغسطين ، مع الفارق الكبير فى المعنى . فمدينة الله عند أوغسطين هى الدولة الإلهية أو الكنيسة =

( قارن القيوديسيه ١٤٦ ومجمل الاعتراضات ، الاعتراض الثاني ) .

٨٦ - إن مدينة الله هذه ، هذه المملكة الكلية الشاملة بحق ، هي عالم أخلاقي داخل العالم الطبيعي ، وهي أسمى أعمال الله وأكثرها ألوهية. انها التعبير الصادق عن مجد الله ، إذ ان يكون لديه شيء منه ان لم تعرف العقول (الأرواح) عظمته وخيريته<sup>(١)</sup> وتحس نحوها بالإعجاب ، وهو كذلك يملك الخيرية ( الطيبة ) خاصة بالقياس إلى هذه المدينة الإلهية<sup>(٢)</sup> ، في حين أن حكمته وقدرته تعجلمان في كل شيء وفي كل مكان<sup>(٣)</sup> .

٨٧ - وكما بينا فيما تقدم أن هناك تجانسا كاملا بين مملكتين طبيعيتين، هما مملكة العلل الفاعلة ومملكة العلل الغائية ، فينبغي علينا أن نشير هنا أيضا إلى تجانس<sup>(٤)</sup> آخر يقوم بين مملكة الطبيعة الفزيائية وبين مملكة الفضل الإلهي الأخلاقية<sup>(٥)</sup> ، أي بين الله بوصفه مهندس الآلة الكونية ،

---

= المسيحية في مقابل الدولة الأرضية أو الوضعية Civitas terrena . أضف إلى هذا أن مدينة الله عند ليبنتز لا تقابل أي نظام أو سلطة أرضية ، وإنما هي النظام الأخلاقي الذي يقوم عليه العالم ويتميز عن نظامه الطبيعي . وأخيراً فإن مدينة الله في رأي ليبنتز لا تقتصر على المسيحيين وإنما تضم البشر جميعا ، ولا شك أنه كان في هذا متأثرا بروح التسامح الديني التي غلبت على عصر التنوير .

(١) أو طيبته ورحمته bonté .

(٢) تتجلى خيرية الله في هذه المدينة لأن الصفات والمزايا الأخلاقية تنتمي للنظام الأخلاقي قبل غيره ، أي للمجتمع الذي تشترك فيه النفوس العاقلة .

(٣) راجع المقال في الميتافيزيقا § ٣٥ .

(٤) أو انساق وانسجام .

(٥) أنظر الفقرتين التاليتين ، والفقرة ( ١٥ ) من المبادئ العقلية للطبيعة =

وبين الله بوصفه ماسكاً على المدينة الآلية الارواح . ( قارن القيوديسيه ٦٢ و ٧٤ و ١١٨ و ٢٤٨ و ١١٢ و ١٣٠ و ٢٤٧ ) .

٨٨ — هذا التجانس يجعل الاشياء تؤدي إلى الفضل الإلهي بالطرق<sup>(١)</sup> الطبيعية نفسها ، كما يقرض على هذه الكرة الأرضية مثلاً أن تدمر ويعاد بناؤها بالطرق الطبيعية في وقت معلوم ، عندما تطلب ذلك حكومة الارواح : عقاباً للبعض وثواباً للبعض الآخر .

( قارن القيوديسيه § ١٨ وما بعدها ، ١١٠ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٣٤٠ ) .  
٨٩ — يمكن كذلك القول بأن الله بوصفه البناء الأعظم<sup>(٢)</sup> يرضى الله بوصفه المشروع من كل ناحية ، وأن الخطايا ينبغي تبعا لذلك أن تحمل معها العقاب الذي تستوجبه بمقتضى النظام الطبيعي بل بمقتضى البنية<sup>(٣)</sup> الآلية للاشياء ذاتها ، كما تحصل الأفعال الطيبة ، بالقياس إلى الأجسام ، على جزائها<sup>(٤)</sup> بالطرق الآلية ، وأن لم يكن من الممكن ولا من الجائز أن يتم هذا دائماً على الفور<sup>(٥)</sup> .

---

== والفضل الإلهي - وكلمة Grac من الكلمات العسيرة التي يحسها القلب ويمجّن اللسان عن وصفها في لغته أو في أية لغة أخرى . واللطف والنعمة والفضل الإلهي كلها مرادفات لفظية عاجزة لهذه الكلمة الباهرة .

(١) أو الوسائل والأساليب الطبيعية ( Voies, means, wege )  
(٢) أو المهندس ، أى أن العالم قد بنى بمقتضى خطة تتسق اتساقاً كاملاً مع الحكومة الأخلاقية لسكانه .

(٣) أو البناء والتكوين Structure .

(٤) أو مكافأتها .

(٥) يرى ليننتز أن الانسان يقع في الخطيئة والذنب عندما يسعى إلى خيره =

٩٠ - وصفوة القول أنه لن يبقى في ظل هذه الحكومة السكاملة فعل خير بغير ثواب ، ولا فعل سيء بغير عقاب ، وأن كل شيء ينبغي أن يستقر نظير الطيبين ، أى لنير الساخطين في هذه الدولة العظيمة ، أولئك الذين يشقون بالعناية الالهية بعد أداء واجبهم ، ويحكون مصدر كل خير ويجبونه الحب الذى يليق به ويبتهجون بالنظر فى كمالاته ، كما تقتضى بذلك طبيعة الحب الصادق المحض ، الذى يجعلنا نسمع بسعادة من نحب . وهذا هو الذى يجعل الحكماء<sup>(٢)</sup> والفضلاء من الناس يشاركون بجهدهم فى كل ما يبدو متسقاً مع إرادة الله التى وعد بها أو سبقت فى علمه ، ويقنعون مع هذا بما تقتضى به مشيئته الخافية المحكمة الفاصلة . إنهم لا يقرون بأننا لو استقطعنا أن نفهم نظام السكون فهما كافياً لاكتشفنا أنه يفوق كل ما يثمنه أحكم الحكماء ، وأن من المحال أن يكون أفضل مما هو عليه ، لا بالقياس إلى الوجود الكلى بوجه عام فحسب ، بل كذلك بالقياس إلينا نحن بنوع خاص ، إذا سلمنا التسليم الواجب بمشيئة خالق كل شيء : لا بوصفه البناء

الخاص بطريقة خاطئة غير مستنيرة ، دون اعتبار للنظام والقانون الاخلاقى الذى يضمن الخير الاقصى للجميع . ولهذا فان الخطيئة تجر وراءها العقاب الذى تستحقه لخروجها على النظام الاخلاقى ، كما يجزى الاهمال والانحراف عن القوانين الطبيعية الألم والمرضى . ونظراً للانساق السكامل بين النفس والجسم ، وبين مملكة الاخلاق ومملكة الطبيعة ، فان جزاء الخطيئة لا يمكن أن يكون جزاء روحياً خالصاً ، بل لابد أن يشارك فيه الجسم والطبيعة . كذلك تحصل الفضيلة على ثوابها الروحى والطبيعى ، لأنها فعل طيب مستنير يتسق مع القانون الاسمى للسكون ، وهو مبدأ الخير الاقصى .

(٢) أو العقلاء Les personnes sages .

( م ١٢ - المونادولوجيا )

الأعظم<sup>(١)</sup> والعلّة الفعالة لوجودنا ، بل باعتباره سيدنا ومولانا ، والعلّة  
الغائية التي ينبغي أن تكون الهدف السكلي لارادتنا ، وتستطيع وحدها  
أن تحقق سعادتنا .

(قارن التيموديسييه § ١٣٤ الخاتمة ، والمقدمة § ٤ أ ب ؛  
§ ٢٧٨ وراجع كذلك المقال في الميتافيزيقا  
§ ٣٦ و ٣٧) .

﴿ تم بحمد الله ﴾

## فهرست

الصفحة	الموضوع
٥	— إهداء
٧	— تقديم سلسلة النصوص الفلسفية
١٣	— تمهيد
١٥	أولا - حياة ليننتز
٢٦	ثانيا - فلسفة ليننتز
٧٣	ثالثا - ليننتز في مرآة الأجيال
٨٩	— تقديم الترجمة
٩٩	— المبادئ العقلية للطبيعة والفضل الالهي
١٢٣	— المونادولوجيا

## أعمال أخرى

الدكتور عبد الغفار مكاوي

### أولا - في الفلسفة :

- مدرسة الحكمة دار الكتاب العربي بالقاهرة
- ألبير كامى - محاولة لدراسة فكره الفلسفى - دار المعارف بالقاهرة
- تأسيس ميثاقينزقا الأخلاق - للفيلسوف كانط - المكتبة العربية .
- فلسفة الملو ( الترانسندانس ) للأستاذف . شتروفه ( تحت الطبع )
- الطريق والفضيلة - لاوتسى - مؤسسة سجل العرب - القاهرة .

### ثانيا - فى الادب :

- ابن السلطان ( قصص ) سلسلة اقرأ - دار المعارف بالقاهرة .
- الست الطاهرة ( قصص ) دار الكتاب العربي بالقاهرة .
- البلد البعيد ( دراسات ) دار الكتاب العربي بالقاهرة .
- مافو : شاعرة الحب والجمال عند اليونان - دار المعارف بالقاهرة .
- التعبيرية - سلسلة المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للتأليف والنشر بالقاهرة .

- هيلدرن ( سلسلة نوايغ الفكر الغربى ) دار المعارف - القاهرة .
- ثورة الشعر الحديث ( جزآن ) الهيئة العامة للتأليف والنشر .
- الأقصوصة والحكاية لجوته - سلسلة اقرأ - دار المعارف بالقاهرة .

- كاسو لجوته - سلسلة مسرحيات عالمية .
- السيد برنقيللا وتابعه مائى لبرخت - سلسلة مسرحيات عالمية .
- الاستثناء والقاعده ومحاكمة لوكولوس - سلسلة مسرحيات عالمية .
- قصائد من برخت - دار الكتاب العربى - القاهرة .
- الأعمال المسرحية الكاملة لجورج بشتير .

رقم الايداع بنار الكتب

١٨٩٣ / ١٩٧٧ م



